صلاح الدين بولوت

العاجز

«رواية»

ترجمة : مروان علي

صلاح الدين بولوت

العاجز

روايــة

ترجمة: مروان علي

مراجعة: كاميران حوج

الطبعة الأولى 1434هـ 2013م

العاجز
صلاح الدين بولوت
Salahattin Bulut
Xadim
العاجز / صلاح الدين بولوت، ترجمه: مروان علي، راجعه: كاميران حوج ط. 1. - أبوظبي: هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة، 2010
112 ص. ، 11×18 سم،
ترجمة كتاب: Xadim
تدمك: 7-199-17-9948-978
1- الأكراد في العالم العربي - قصة. 2 - الأكراد في العالم العربي - أدب.
أ - علي، مروان. ب - حوج، كاميران. جـ - العنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الكردي:
Salahattin Bulut
Xadim
Copyright © by Avesta, 2005
First edition was originally published in Kurdish in 2005
لوحة الغلاف للفنان السوري بهرم حاجو

كلمة
KALIMA
www.kalima.ae

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

العاجـز

1

بانت الشمس.

لو نثرت حفنة تراب فوق الجمع المزدحم في فناء دار خليل بيك، لما وصلت إلى الأرض، حيث احتشد منذ الصباح الباكر أولاده وزوجاتهم، بناته وأزواجهن، إخوته وأخواته وأصهارهم وأولادهم بالإضافة إلى عائلة زوجته وأقربائها.

مع ارتفاع الشمس وصل المزيد من الضيوف والأهل والمعارف. وكلما تقدمت الساعة جاء آخرون وآخرون. امتلأ البيت فلم يعد في الداخل مكان للجلوس أو حتى للوقوف وتراكمت أمامه الأحذية. حتى أن بَرِفه زوجة خليل بيك اضطرت لفسح مكان للقادمين الجدد في باحة الدار.

لم ترض بَرِفه رغم كبر سنها أن تجلس أو ترتاح في

ذلك اليوم. أصبحت خفيفة كالفراشة، تراها داخلاً تخدم الضيوف، ثم تراها خارجاً تروح وتجيء. مدت البسط والسجاد العجمي الجديد للزوار في الخارج وأحضرت الوسائد المطرزة بالزهور والطيور ليتكئوا عليها. كانت توجه أوامرها لبناتها وكناتها، لأبنائها وأصهارها وأحفادها، تركض إلى المطبخ، تفتح الطناجر وتتذوق الطعام، تخفف النار تحت القدور أو تزيدها، وتقول لنفسها: «لم ينضج بعد، يحتاج إلى القليل من الوقت». ثم تلتفت إلى الأطفال، تمسح دموعهم ومخاطهم ولعابهم، وتضع قطعة من الخبز والحلاوة في أيديهم ليهدأوا قليلاً، لكنهم سرعان ما يعودون إلى شغبهم، يتخاطفون الألعاب، يشد أحدهم شعر الآخر، يفجرون بالوناتهم، يتدافعون لدخول البيت زرافات، يركلون الأحذية المتراكمة في العتبة، ثم ينطلقون كالسهام إلى الخارج.

الشباب والصبايا، الأصهار والكنات، كل من طرفه كان يمد يد المساعدة، بين من يذهب إلى السوق

ومن يسرع إلى المخبز، بعضهم يعد طعام الغداء في المطبخ، وبعضهم ينظف منافض السجائر التي سرعان ما كانت تمتلئ. الصبية كانوا يوزعون الماء واللبن البارد والمرطبات الحمراء والصفراء، والصبايا يوزعن الشاي والقهوة. أما الرجال فكانوا يتبادلون السجائر، يشعلون الواحدة من الأخرى وهم يستمعون إلى نشرة الأخبار الصباحية في التلفاز ويتجادلون في الشأن العام محتدين، بينما تمسك بعض النسوة المتأوهات بركبهن، يدلكنها، يعتذرن عن تصرفهن بخجل وهن يمددن أرجلهن، يتبادلن الحديث عن ضروب جديدة من الأمراض انتشرت في الأعوام الأخيرة ويثرثرن في كل شاردة وواردة. بعد أن نظر خليل بيك إلى ساعة يده التي تدلت في معصمه، أوصى زوجته بكل ما كان يدور في خلده. دس أطراف قميصه تحت نطاق بنطاله، تضمخ ببعض العطر، صفف بقايا شعره الأبيض كالقطن المندوف بكفه، غطاه بقبعته المربعة الملونة، لمع حذاءه بخرقة بالية، وزع نقوداً على الأولاد المتشبثين بساقيه وخرج برفقة ابنه وأخيه. على مقربة من زاوية

البيت كان شقيق زوجته في انتظارهم. استقلوا السيارة وانطلقت بهم.

2

كانت الشمس قد ارتفعت فوق سجن ديار بكر بمقدار قامة. هرس الباب الخارجي الحديدي الحصيات تحته وهو يفتح ببطء ثقيل.

بان زيهات.

لاح بين درفتي الباب مثل خفاش. ظلل عينيه كمن تجمع ضوءُ عشرات السنين لينصبّ فجأة في حدقته فتوقف في مكانه. لكزه الشرطي الواقف خلفه مرات عدة بالهراوة، شتمه وركله إلى الخارج.

فاض الكيل بزيهات، اشتاط غيظاً من الشرطي، اشتاط غيظاً من ذاته، احتقرها ولم يعرف كيف يتصرف. قال في نفسه: «تفووه علي... لم تبق عندي ذرة كرامة، أنا جبان، نعم، جبان وخائف، أنا تافه... أنا مجرد فأر... حشرة... أنا خسيس ووضيع... قذر... لا أساوي قرشاً واحداً».

مع صرير باب السجن سمع زيهات صوت أبيه. ظلل عينيه بيديه ورفع ظهره المحني ناظراً إلى الأمام. كان خليل بيك ممسكاً بقبعته ملوحاً بها وهو ينادي: «زيهات، بني زيهات، نحن هنا». كانوا يقفون على رؤوس أصابعهم، يمطون أعناقهم، يتقافزون، يلوّحون بمناديلهم، يرفعون أياديهم ويهتفون: «زيهات، زيهات».

كان زيهات مرتبكاً مثل جرو ضال أعيد إلى أصحابه. شاهد أهله واندفع نحوهم، ارتمى في أحضان أبيه ومرافقيه، قبلوا بعضهم بعضاً، تعانقوا ونسوا أنهم يقفون أمام السجن كأنهم في حلم. صراخ الحارس أعادهم إلى أرض الواقع. كان الشرطي يمسك ببندقيته من وسطها، يهدد ويشتم الجمهرة ليفرقها.

افترق الأب عن ابنه. التزم الجميع الصمت وفي قلوبهم حرقة من سوء القدر. قال خليل بيك بصوت خفيض: «الفرح الزائد لا يبشر بالخير يا ولدي، دعنا نذهب» واتجه نحو السيارة.

لفوا أذرعهم حول رقبة زيهات. أركبوه السيارة وانطلقوا.

جلس زيهات في المقعد الخلفي للسيارة متوسطاً عمه وأخاه. كانا يداعبان أصابع يديه ويقبلانه بين فينة وأخرى. جلس خليل بيك في المقعد الأمامي وكان كلما التفت إلى زيهات اصطدمت حافة قبعته بالخرز المتدلي من سقف السيارة، فيتطلع في ابنه على رنين الأجراس الصغيرة ووجهه يشرق بالسعادة والخيلاء. كان خاله يقود السيارة ويلتفت بدوره بين الحين والآخر ليرمق وجه ابن أخته.

كانت رياح الخريف تتلاعب في نوافذ السيارة التي أنزل زجاجها وأوراق الأشجار الصفراء تنتظر فرصة للتساقط، كأنها لا تطيق البقاء على الأغصان أكثر، فتتراقص في الريح وتتهاوى.

عبّ زيهات الهواء الذي كان يفوح برائحة التراب غب المطر، نظر زائغ العينين إلى الخارج وفكر: «كم

تغيرت الأمكنة! كان السجن قبالة خرابة خارج المدينة، في بيداء مقفرة، لم يكن فيها سوى بيوت عدة موحشة متبعثرة، فر سكانها لأنهم لم يتحملوا الصرخات المتسربة من السجن. لكني الآن أرى أن السجن صار في وسط المدينة. أينما نظرت تجد طرقاً معبدة، أبنية، دكاكين ومقاه».

كانت السيارة تتوغل في المدينة وزيهات يوغل في التفكير: «المدينة كبرت كثيراً. كما لو أنها مدينة أخرى، حتى الآن لم أصادف مكاناً أعرفه. أظن أنني سأضيع لو تركت وحيداً هنا».

كان يشعر بضيق يجثم على صدره لأنه لا يقدر على الحركة وهو محشور بين أخيه وعمه. أحس بألم شديد في ظهره وخدر في رجليه. تمنى لو يجلس إلى النافذة إلا أنه التزم الصمت.

كانت السيارة ترتج على الطريق وعلى وقعها كانت صورة زيهات ترتجف في مرآة السائق ورأسه لا

تستقر على رقبته الهزيلة. خفّ شعره وبدا عليه الشيب خصوصاً عند الصدغين. حواجبه مشعثة نافرة. تهدل الجلد تحت عينيه وبانت عظام وجنتيه. غدت خدوده أعمق. على شفته السفلى ترتسم آلام عشر سنوات. كان زيهات يرمق مرآة السائق باحثاً عن عمره الفائت، عن سنواته الخمس والثلاثين. تأمل عينيه في المرآة كما لو أنهما بئران عميقتان. تحسس جسده البارد والمتيبس. كانت روحه مرهقة وآماله منطفئة. تذكر شبابه الذي ذهب سدىً وتنهد عميقاً.

هزه أخوه من كتفه: «أخي حين نجتاز ذلك البيت أمامنا، سترى بيتنا، انظر ها هو... ذلك البيت الذي أمامه شجرة سفرجل كبيرة».

3

في بيت خليل بيك، كانت العيون تراقب الطريق متلهفة وحالما ظهرت السيارة هرعوا جميعاً إلى الخارج. تحلقوا حول زيهات، ضموه إلى الأحضان وعانقوه، راغبين في إطفاء نار الشوق الذي دام عشر سنوات حتى تلك اللحظة. كان اللوعة والشوق يختلفان من فرد لآخر. فأحدهم يحتضنه بشغف ثم يتركه، آخر ينهال عليه بالقبلات ولا يريد الانفصال عنه، آخر يدس وجهه في صدره ويشمه، آخر يمسح على وجهه ويمسد شعره وآخر يكتفي بالنظر إليه من بعيد. لم يكن الأطفال يعرفونه، لكنهم الآن ينادونه «عمو» أو «خالو» نزولاً عند أوامر ونصائح الكبار، يجرونه من قميصه ويقبلون يديه. وفي كل ذلك الهرج والمرج كانت هناك امرأة، لا يعلم إلا الله ما الذي تأمل. كانت بِهارِه على مبعدة من الجمع، تقف أحياناً على رؤوس أَصابعها، تمط عنقها وتختلس النظر إلى زيهات.

كانت أمها صديقة أم زيهات، بَرِفه، منذ الطفولة،

وانتقلوا منذ حوالي عام ليسكنوا في جوارهم، بحيث تطل نوافذهم على بعضها. بِهارِه في حوالي الثلاثين من العمر. وهي سيدة باسمة، طيبة المعشر وجميلة، لكن في وجهها بقعة بحجم الكف خلّفها حريق سدّ باب النصيب في وجهها ووقف حائلاً بينها وبين الخطّاب. كانت بَرفِه تحبها ولا تني تردد على مسامعها: «لم يبق إلا القليل يا ابنتي، الصبر مفتاح الفرج، فليخرج حبيبي من السجن وحالما آخذ موافقته، سنتوكل على بركة الله..».

ومع الوعود استيقظت جذوة الأمل في قلب بِهارِه. أخرجت مرآتها التي أخفتها منذ زمن بعيد وعلقتها من جديد على جدار غرفتها. كانت تغتسل، تتبرج، تحنّي شعرها، تكحل عينيها بالكحل العربي، تسبل شعرها الطويل على قامتها الهيفاء وتعد الأيام.

متكاتفين دخل زيهات وأمه برفقة الضجيج المحيط بهما إلى الدار من خلال أغصان شجرة السفرجل

ونظرات بهارِه الخفية.

لم يتوقف الهياج حتى ساعة متأخرة. ما إن تمضي جماعة حتى تعقبها أخرى للترحيب بزيهات والسؤال عن أوضاعه. كان الزوار يتبادلون أخبار الداخل والخارج، يتجادلون في شؤون السياسة العالمية، يشربون الشاي، يدخنون السجائر ولا يتوقفون عن الكلام، بينما زيهات صامت، غارق في أفكاره كحجر في قاع بئر لا تصدر عنه نأمة.

بتقدم الليل استأذن آخر من تبقى من الضيوف وغادروا. جلست بَرفِه بجانب ابنها، قبلت ظاهر يده، طقطقت أصابعه واحداً تلو الآخر، دلكت ركبتيه، دست وجهها في شعره وطفرت الدموع من عينيها.

«ألف الحمد لله يا ربي...»، قالت ومسحت عينيها بمنديلها الذي تحتفظ به في حزام ظهرها وأردفت: «لم يكن لي في هذه الدنيا غير أمنيتين. إحداهما أن يخرج ابني سليماً معافى من السجن والأخرى أن أكحل عيني برؤيته متزوجاً. ها قد تحققت الأولى، وإن شاء الله

ستتحق الثانية قريباً...».

قرأت بَرفِه خطوط وجه ابنها وهي تحدثه عن الزواج باحثة عن تغييرات تجري على ملامحه. فحصت شعره، أجفانه، الشعيرات على أصابعه، راغبة في العثور على علامة صغيرة تشجعها على ذكر بهارِه، لكنها لم تر بصيص أمل. كان زيهات كومة عظام لا تشي بما يعتمل فيها.

كان خليل بيك قد اتكأ على مخدتين وهو يمد جسمه على سجادة متابعاً نشرة أخبار آخر الليل في التلفاز. ضاقت برفة بصمت زيهات ولامبالاة زوجها، فمدت يدها نحوه وصرخت فيه: «بحق الله، ما هذا الصخب الذي يصدره هذا الشيء، والله لقد أصبتنا بالصمم».

باغت هذا الهجوم خليل بيك فغير جلسته واستدار إلى زوجته ولكي يتفادى الهجمة التالية حدق في عينيها وقال: «الله الله، يا بنت الحلال ما لك وللتلفاز؟»

رفعت برفه صوتها أكثر: «ويرد علي أيضاً! كيف لا علاقة لي؟ وهل تسكن وحدك في هذا البيت». نقرت

بأصابعها على أذنيها مرات عدة، وأضافت: «لقد صرنا طرشاً، طرشاً».

أطفأ خليل بيك التلفاز بجهاز التحكم وتساءل: «ألا يحق لي حتى الاستماع إلى الأخبار؟»

عندما جاءت سيرة الأخبار خرجت بَرِفِه عن طورها: «أخبار، أخبار، أخبار... أنت تسمع الأخبار منذ الصباح إلى آخر الليل، ألا تكتفي منها؟ وحق القرآن»، قالت ونظرت إلى المصحف المعلق على الجدار. وعندما تذكرت أن خليل بيك لم يفتحه منذ عهد بعيد اشتد حنقها، وأضافت: «وحق هذا الكتاب الكريم، لو نهضت سأرطم جهاز التحكم بالحائط وأحطمه إلى ألف قطعة».

جر خليل بيك رجليه واعتدل في جلسته وهو يهز رأسه مستغرباً: «لا حول ولا قوة إلا بالله. ما هذه المصيبة يا ربي».

كأن برفه سكين تشحذها أقل كلمة، انطلقت نار من فمها عندما فتحته: «أليس معي حق؟»

«طيب سأطفئه يا بنت الحلال، كفاية زعيق، عيب

عليك عيب، صوتك يصل إلى الخارج».

إلا أن برفه لم تكف: «ليسمع كل العالم صوتي، لو أنك تحس قليلاً لما كنت سمعت صوتي».

«ماذا تريدين مني الآن؟ وما الداعي لكل هذا الزعيق؟ كنت أريد الاستماع خمس دقائق إلى الأخبار وانتهى..».

«دقائقك الخمس لا تنتهي أبداً. منذ عشر سنوات وأنت تستمع إلى الأخبار، خبرني ما الذي استفدته منها؟ أقسم بالله أنك لا تفهم حرفاً واحداً منها».

تبسم خليل بيك من تحت شاربيه (كان يتبسم دائماً عندما يعرف أن زوجته على حق) ثم نهض وسار نحوها راغباً في مداعبتها. أدخل قدمه تحت حافة فستانها ولمس قدمها وقال: «آمنت بالله، يكفي، انتهينا... قومي الآن وأعدي الفراش، أريد أن أنام». نظر إلى زيهات وعقب: «ألا ترين أن زيهات أيضاً يتثاءب؟»

رفست برفه قدمه وتراجعت في جلستها: «ذاك هو فراشك، اذهب وانقبر فيه... وأنت بجميع

الأحوال إما نائم أو تتفرج على الأخبار الفارغة... ومتى جلست مثل بقية رجال العالم بين أسرتك قليلاً وتبادلت الحديث مع زوجتك؟»

كان زيهات قد اشتاق إلى شجاراتهما. ومثل سابق عهده انشطر فمه عن ابتسامة وهو يراقب أبويه. في تلك اللحظة هب نسيم منعش، خشخشت أوراق شجرة السفرجل، تحركت العصافير البائتة في أعشاشها، انفتحت النافذة على آخرها ولوح الهواء بالستارة المسدلة. تبادلت برفه النظرات مع خليل بيك وضحكا. سرت السعادة إلى قلبيهما ومضيا إلى الفراش.

عندما أطفآ الأضواء، كانت نافذة بهاره لا تزال منارة.

4

كانت بهاره قلقة تخطو في غرفتها جيئة وذهاباً كأنها تسير على الجمر. لم يتضح لها شيء. هل حدثت بَرفِه زيهات عنها؟ ترى ما الذي قاله زيهات؟ ومن أين لها أن تعرف أجوبة هذه الأسئلة. كان محياها يشرق عندما يرد اسم زيهات على ذهنها. كررت الاسم مئات المرات لتأنس به. كانت تقترب من المرآة، تضع يديها في خصرها، تركض إلى النافذة، تلقي نظرة على بيت بَرفِه، ثم تخرج إلى الشرفة تتملى أضواء المباني. وكلما انطفأ مصباح، آلمها قلبها كأن ضوءاً يختفي من عمرها.

لم تكن بهاره تعرف زيهات ولا رأته قبل هذا الصباح. لم تشاهد إلا صورة له معلقة في بيت بَرفِه. لم تكن تعرف شكله ولا طباعه، ولا كانت هذه التفاصيل تهمها في شيء. إلا أنها لما رأت صورته ذات مرة على الجدار، غدت كفراشة سقطت في الماء وخانتها أجنحتها. في تلك الصورة كان زيهات شاباً وسيماً، رشيق القد، يصغرها سناً. نظرت إلى الصورة

وفكرت: «وهل يعقل أن يتخذني هذا الشاب الوسيم الأنيق زوجة؟». لكن وعندما تبين لها من خلال أحاديث بَرِفهِ أن الصورة تعود لعشر سنوات خلت، لاحت بوارق البهجة في قلبها وتفتحت براعم الأمل في أحلامها. وأينعت هذه الأحلام عندما رأته صباحاً. «لقد خارت قواه... أظن أنه سيرضى بي... إننا نناسب بعضنا جداً...»، تواردت الخواطر على رأسها وتفتقت بذور السعادة في روحها الساكنة.

حين تيقنت أنها تناسبه، تذكرت صندوق ثيابها بغتة. أخرجت فساتينها المخبأة منذ عهد بعيد، وقفت أمام المرآة، وضعت الفساتين الواحد تلو الآخر على قامتها الهيفاء وهي تتأمل حسنها طويلاً. ثم لفت الفساتين برقة وحدب ورتبتها بأناملها الرقيقة في الصندوق. إلا أن الزمن توقف تلك الليلة وألح على تعذيبها، فجالت في غرفتها كفراشة تحوم حول شعلة. مع خيوط الفجر الأولى أرهقت الفِكَرُ ذهن بهاره واقشعر جسدها كمن انتابته الحمى. تذكرت وحدتها ولياليها الطويلة، أشفقت على نفسها وغطت سحابة

دموع عينيها. تدثرت بشال صوفي وثير، فركت كفيها وظلت تخطو في غرفتها حتى طلع الصباح.

5

استيقظ زيهات في فراش وثير. عندما فتح عينيه شاهد وجهه في مرآة طويلة معلقة على الجدار قبالة الفراش. خاف من الصورة في المرآة، كأن من يشاهده ليس هو نفسه، إنما آخر مجنوناً. أشاح بوجهه فصدمته الصورة المعلقة على الجدار الآخر منذ عشر سنين. اتسعت حدقتا عينيه ونقل بصره بين المرآة والصورة. تساءل: «أيهما زيهات الحقيقي؟ هل هو زيهات الصورة أم زيهات المرآة؟ لو بث الروح في زيهات الصورة ووقفت أمام المرآة، فهل سيجد نفسه فيها؟ كم شخصاً يتجاور في الشخص الواحد؟ هل يعيش الحياة ذاتها الشخص ذاته أم عدة أشخاص؟»

تلاطمت الأفكار في رأسه. نقب عن ذاته، فكان يدنو منها حيناً وحيناً تنأى عنه كوميض في المدى أو ضباب في الصحراء التي تلتبس روحه المقفرة، فلا يرغب في رؤية المرآة ولا الصورة. رفع اللحاف فوق رأسه وأجهش بالبكاء.

في المطبخ كانت بهاره وآفشا، أخت زيهات، تعدان الفطور. كانت آفشا آخر العنقود، لما تبلغ العشرين من العمر بعد، إلا أنها متزوجة وحامل. في طفولتها كانت آفشا مدللة البيت وأثيرة إلى قلب زيهات. كانت متعلقة به جداً، فلا تخرج من حجره عندما يكون في البيت. حين كان زيهات يرفعها في الهواء أو يضعها على ظهره ويسير بها، كانت أمه تنادي عليه: «يا ولد لا تعوّد هذه الملعونة على نفسك، فأنت كل يوم في مكان»، إلا أن زيهات لا يصغي إلى أمه ويلاعب الصغيرة حتى تنام. في طفولتها كانت آفشا مهووسة بالزبيب الذي يشتريه لها زيهات كلما عاد إلى البيت وعندما كانت تجلس في حضنه وتأكل الزبيب، كان زيهات يقبل خدها المنتفخ ويسألها: «قولي لأخيك، من تحبين أكثر، أنا أم الزبيب؟» فكانت ترد عليه: «الزبيييب» ولهذا أطلق عليها زيهات لقب «زبيبة». كانت في العاشرة من عمرها لما اعتقل زيهات ولم تذق الزبيب منذ ذلك اليوم.

لم تكن «زبيبة» تتحمل الوقوف على قدميها طويلاً، فلم يبق على موعد ولادتها أكثر من خمسة أيام، حسب

الطبيب. أمسكت بهاره بيدها وأجلستها على الكرسي مؤنبة: «هذا مكانك الصحيح، تمام؟»

نظرت إليها آفشا بامتعاض.

قالت بهاره: «لا تعبسي في وجهي. وحق كتاب الله لن أسمح لك بلمس أي شيء».

«معك حق، لكنك لا تعرفين كم كنت أحلم بتحضير الفطور لأخي عندما يخرج من السجن».

«أعرف، أعرف. رغم هذا، لا أظن أن أحداً كان متلهفاً مثلي على..».

خجلت بهاره من اندفاعها وعثرتها فجأة واحمرت شحمتا أذنيها. غسلت وجهها بالماء البارد وتمتمت: «أختاه، أرجو المعذرة، أحياناً لا أعرف ماذا أقول».

«بلى، بلى، تعرفين تماماً ماذا تقولين»، ردت آفشا وضحكت.

التفتت بهاره إلى آفشا، لفت ذراعيها حول عنقها وضحكت بدورها.

في الصالون اجتمع إخوة زيهات، دارا وروبار، مع زوجتيهما وأطفالهما. كانت بَرفِه تنظف الغبار

المتراكم على «الكومودينه» عندما دخل زيهات وعيناه محمرتان. تلقفته أمه وأمسكت يديه: «هل كان فراشك مريحاً يا ولدي، هل نمت جيدا؟»

.«كان مريحاً جداً يا أم ونمت نوماً عميقاً».

ابتسم زيهات لأخويه وزوجتيهما. تبادلوا السلام، مسح على رؤوس الصغار، قبلهم وجلس بجوار أمه. هنا دخلت آفشا الصالون. قفزت إلى حضن أخيها وانحدرت الدموع من عينيها. بَرِفه كانت متأهبة دائماً للبكاء، فما إن ترى أحداً يذرف دموعاً حتى تبدأ بالنشيج. مسد زيهات شعر مدللة البيت ورفع خصلاته عن وجهها، مسح دموعها، حدج في عينيها وابتسم لها: «نعم، نعم، أعرف لماذا تبكين».

«لم يكن قصدي»، قالت آفشا وهي تمسح أنفها. مسحت برفه أيضاً أنفها. قرص زيهات شفة آفشا السفلى: «لا تخافي، لقد جلبت لك الزبيب». وضعت آفشا يدها على فم أخيها وامتزجت دموعها المترقرقة بضحكة. تدخلت برفه في الحوار: «والله العظيم يا ولدي، لا أحد يحبك مثلها. يوم جاء خطابها، كادت

تقتل نفسها بكاءً. قالت: «لن أتزوج في حياتي قبل أن أرى عرس أخي». ولم ترض بالزواج إلا بعد أن عنفها أبوك وصب اللعنات على رأسها».

قرص زيهات خدها. ابتسم لها. أمسك خصلة من شعرها ولفها على أصابعه. رفعت آفشا عينيه إلى وجه أخيها. قالت وحدقتاها ممتلئتان بالتوسل: «لن تتركنا بعد الآن أبداً، أليس كذلك يا أخي؟»

أومأ لها زيهات موافقاً. قرص ذقنها وابتسم لها. قالت برفه وهي تومئ برأسها: «نعم، نعم... ابنتي على حق، لم نشبع منك طوال العمر يا ولدي».

جاء صوت بهاره من المطبخ: «الفطور جاهز يا خالتي، هل آتي به؟»

«نعم يا ابنتي، أحضريه، أحضريه»، قالت برفه وهي تمد المشمع على البساط.

دخلت بهاره مطأطأة الرأس وهي تحمل سفرة لا تكاد يداها تسعانها. أشارت برفه إلى المشمع وقالت: «ضعيها هناك من فضلك، يا ابنتي».

مع وصول السفرة إلى الأرض دعت برفه كنتيها،

أولادها وأحفادها إلى الفطور. تجمعوا حول السفرة. كانت بهاره تود أن تصب أقداح الشاي للجميع، خاصة لزيهات، إلا أنها شغلت نفسها بعمل آخر خشية الرجفة القوية في يديها. كانت برفه تتأمل في زيهات كأنها تتأمل طفلاً وتقرب منه كل ما على المائدة، كأنها تريد أن يأكلها هو وحده، إلا أنه زهد في الطعام كمن يتذوقه دون رغبة فيه. عندما مسح يديه وهم بالنهوض تشبثت أمه بيده وألحت عليه: «وكتاب الله لن تنهض. ماذا أكلت يا ولدي. كل قليلاً، أنت جلد على عظم». رغماً عنه أكل زيهات لقيمات عدة أخرى وتراجع من ثم عن المائدة وهو يقول: «كان الفطور طيباً جداً يا أم، سلمت يداك».

«يا ولدي أنا ما لمست شيئاً بيدي، الله يرضى عليها بهاره جهزت كل الفطور... لا أعرف ماذا كنت سأعمل دون بنت الحلال هذه، فهي تؤدي كل أعمال البيت عني»، قالت برفه وهي تختلس النظر إلى زيهات.

لم ينبس أحد ببنت شفة. حبس الجميع أنفاسهم ناظرين إلى زيهات. رفعت بهاره صحوناً عدة فارغة

واستعجلت في الخروج إلى المطبخ، إلا أن أذنها بقيت في الصالون.

لم ترفع برفه عينيها عن ابنها. تململ زيهات في جلسته، ثم سأل: «يا أم، أين هو أبي؟»

لطمت بَرِفه ركبتها وهزت رأسها، لكن زيهات لم يدرك إن كانت أمه تتذمر منه أم من أبيه. وقفت بهاره فجأة في باب الصالون. كانت رموشها ترفرف على عينيها كأجنحة عصفور خائف. سألت: «خالتي، علي أن أذهب الآن، لكن لو احتجت أي شيء، ناديني وسآتي على الفور» وانتظرت الإذن بالانصراف بكل أدب وحشمة.

«طيب يا ابنتي، الله يرضى عليك، سلمي لي على أمك».

ابتسمت بهاره للجميع. عندما التقت نظراتها بنظرات زيهات، كادت رموشها تحترق على جمر وجنتيها، فأسرعت في الذهاب.

لملمت برفه فتات الخبز المنتثر على البساط وهي تحبو نحو زيهات: «ولدي زيهات.. قالت وهي تضم يديه

بين يديها: طالما نحن وحدنا أريد أن أخبرك بشيء. بهاره هي ابنة صديقتي كلجين، نعرف أباها وأمها منذ زمن طويل، وهم ناس طيبون وأولاد حلال، بهاره أيضاً بنت ظريفة. هم جيراننا منذ سنتين ولم نر منهم إلا كل خير. البنت شاطرة وعاقلة. ها هم إخوتك هنا، هم أيضاً سيؤكدون كلامي، كلنا نحبها ونريد أن تكون عروستنا، فماذا تقول أنت يا ولدي؟».

حدق الجميع في زيهات. حتى الأطفال كفوا عن اللعب وبحلقوا في عمهم. جر زيهات ساقه وأراد أن يسند ظهره إلى كرسي، إلا أن الكرسي تزحلق وسقط زيهات على ظهره. انفجر الأطفال بالضحك. استقام زيهات وكي يتغلب على خجله نظر إلى قدم الكرسي وقهقه بدوره. نهرت بَرِفه الأطفال: «اخرسوا يا ملاعين الآباء، أنتم لا تتركوننا نتبادل كلمتين متتاليتين، اغربوا عن وجوهنا إلى الخارج، يا الله»، ثم التفتت إلى زيهات وفي عينيها نظرة متضرعة.

مضى زيهات إلى النافذة واستند عليها. دس وجهه بين يديه، تأمل شجرة السفرجل وشرد بين أغصانها

المتشابكة كأفكاره. لم تطق برفه صبراً. كانت تود أن تعرف فيم يفكر ولماذا يتهرب منها. دعت له في قلبها. نهضت وذهبت إليه: «هذه الشجرة العاقر زرعها أبوك. كم قلت له، ازرع على الأقل شجرة مثمرة فربما أكلنا منها يوماً ما، لكنه لم يستمع إلى نصيحتي، كررت عليه القول كثيراً، لكنه لم يعرني سمعاً».

«يا أم، أين تبغ أبي؟ أريد تدخين سيجارة»، قال زيهات بصوت يكاد لا يسمع.

في هذه اللحظة سمع صوت قرع شديد على الباب كأن أحدهم يرفسه. تجمد الجميع وتبادلوا النظرات بعيون ملؤها الخوف وبينما هم يتبادلون الأنظار الوجلة مدهوشين، قرع الباب من جديد بعنف أشد. بكى الأطفال وارتموا في أحضان أمهاتهم. قالت الأمهات «إن شاء الله خيراً» وضممن أطفالهن إلى صدورهن ونظرن متضرعات إلى أزواجهن. وضعت برفه يديها في خصرها، ابتعدت عن النافذة ووقفت في وسط الصالون كأنها تنصب خيمة أمومتها الرؤوم فوق رؤوس الجميع: «لا تخافوا! العسكرية وأديناها،

السجن ودخلناه، فما الداعي لكل هذا الخوف إذن؟».

ومضت إلى الباب. توجست قلوب الجيمع شراً.

عندما فتحت بَرِفه الباب ورأت خليل بيك جن جنونها، إلا أن خليل بيك كان يبدو أكثر جنوناً منها. كان يحمل بيديه سطلي لبن جاء بهما من المدينة سيراً على الأقدام ساعة كاملة، نضحت قبعته بالعرق وهده التعب. دخل من الباب مرتطماً بزوجته قبل أن تفتح له المجال وهو يوبخها: «يا طرشاء، أعرف ما هو جزاؤك، لكن ماذا أفعل، الأولاد في البيت».

اشتاطت برفه غضباً: «ما هو جزائي، ها؟ قل، قل، ماذا أستحق؟ على فرض أن الأولاد ليسوا في البيت، ماذا ستفعل، ها؟ قل، قل، ماذا كنت ستفعل؟». وضعت يديها في خصرها ووقفت أمام خليل بيك متحدية. نظر خليل بيك إلى يديها في خصرها وبدأ يهز رأسه لا يدري كيف يتصرف: «الآن لن أقول شيئاً.. ادعي للأولاد»، قال ومضى في طريقه. ارتطم مرفقه بمرفقها. توقف بعد خطوة منها ووضع السطلين على الأرض.

«آه منك آه، لو كان لديك أدنى اهتمام بالأولاد ما ركلت الباب هكذا وأرعبتهم كل هذا الرعب. هل يداك مكسورتان يا رجل؟»

«اغربي عن وجهي الآن ولا تثيري أعصابي أكثر، ألم تري أن يداي مشغولتان؟»

«اللهم ضع بعض العقل في رأس هذا الرجل. ماذا أقول بعد، كنت تستطيع أن تضع السطلين من يدك وترن الجرس».

«لو فتحت الباب أسرع لما رفسته».

(وهل لدي جن ليخبروني «خليل بيك قادم، قومي افتحي له الباب»).

«سابقاً كان عندك جن، لكن آخ من الأيام، آخ».

«أي جن! ماذا تهذر يا رجل، هل بدأت تخرف؟»

«والله زمان! أنا أخرف؟ ألا تتذكرين حضرتك أنك كنت تقفين في الشبابيك ساعات وساعات لمجرد أن تلقي نظرة واحدة علي؟» قال خليل بيك، جال بنظره بين الحضور وهو يبتسم.

«لو كنت أعلم أنك على هذه الشاكلة، لما انتظرتك

ثانية واحدة».

تطلع الحضور في بعضهم، وتعالت ضحكاتهم. ومرة واحدة تلاشى الجو المشحون الذي ساد الصالون قبل لحظة. رفعت برفه السطلين عن الأرض، فتبعها خليل بيك إلى المطبخ.

«قشري القشدة وضعيها لزبهات في صحن، ثم أفرغي السطلين بسرعة، علي أن أعيدهما إلى أصحابهما».

«يا رجل ارتح قليلاً، الدنيا لن تطير، خذها لاحقاً».

«لا، لا، الجماعة ينتظرونني».

نظرت برفه إلى زوجها وقالت بصوت خفيض:

«كلمته عن بهاره قبل أن تأتي».

«وماذا قال؟»

«قلّب وجهه ولم يرد بشيء. ثم مضى إلى الشباك وشرد في أفكاره».

«أنت الأخرى لا تستعجلي كثيراً على الولد».

«لا أعرف يا خليل، لا أعرف».

«يا ربي، ما الذي جرى من جديد».

«أنا خائفة يا خليل، خائفة. هل أكذب عليك».

«يا امرأة، لقد خرج لتوه من السجن، اصبري عليه قليلاً حتى يلتقط أنفاسه، وبعدها سنرى».

«ما أدراني يا خليل! تطرأ في رأسي آلاف الأفكار السوداء. في السنين الأخيرة لم يتزوج أحد من الشباب الذين خرجوا من السجن والذين تزوجوا لم يخلفوا ذرية، أنا خائفة يا خليل، خائفة».

«أتمنى أن أراك مرة واحدة فقط تفتحين فمك وتنطقين ببشرى خير. أنت مثل البومة العمياء لا تكفين عن النعيب. هيا أفرغي السطلين بسرعة لأخرج، الناس تنتظرني، هيا».

خرج خليل بيك من البيت وسيجارته في فمه، السطلان في يديه وآلاف الهواجس تتصارع في رأسه. أسندت برفه رأسها إلى زجاج النافذة وتعقبته بأنظارها. كان دخان السيجارة يتصاعد فوق رأسه ويتشتت في الهواء. مسحت برفه عينيها المترعتين بالدموع، رشت سكراً على القشدة، دخلت الصالون ومدت الصحن نحو زيهات.

«لن آكل يا أم»، قال زيهات وصد الصحن.

«يا ولدي، لقد خرج أبوك مع الفجر لأجل هذه القشدة».

«قلت إني لن آكل يا أم».

«ملعقة واحدة فقط».

«يا أم، أنا لا أشتهي القشدة، قدميها للأطفال، فليأكلوها هم».

مسح الأطفال زوايا أفواههم بألسنتهم ونظروا إلى جدتهم متوسلين.

«ليأكل الأولاد السم»، قالت برفه وخرجت من الصالون حاملة صحن القشدة.

6

دارت الأيام دورتها الأزلية وخبا الضجيج في بيت خليل بيك. عاد الضيوف القادمون من القرى النائية إلى منازلهم، انتهت إجازة دارا وروبار، أنجبت آفشا ولداً ولم تعد قادرة على زيارة أخيها يومياً، وبهاره خففت من ترددها على بيت برفه. حلت الوحشة على زيهات وجاءه الفراغ بالمزيد من الملل.

ذات يوم قطع وحشته قرعُ الباب. فتح زيهات الباب فإذا به أحد الرفاق، كان يعمل معه قبل الاعتقال في تنظيم للشبيبة. كاد زيهات يطير فرحاً بزيارة جمال المباغتة، فقد كانا صديقين حميمين. احتضنه وتعانقا طويلاً بحرارة. ثم أخذ زيهات بيد صديقه وأجلسه على الكنبة تحت نافذة الصالون.

قال زيهات متلهفاً: «ما كنت أعرف أنك هنا، كنت أفكر لو أنه هنا لزارني بكل تأكيد».

«كنت سآتي، لكني فضلت الانتظار، حتى تخلو الأجواء قليلاً».

جاء صوت بَرِفه: «زيهات ، ولدي، أظن أني سمعت صوت الباب، هل جاء أحد؟»

«إنه جمال يا أم، جمال».

عندما سمعا صوت برفه، تبادلا الأنظار وتذكرا الأيام الخوالي. تكوم جمال على نفسه في زاوية الكنبة وهتف: «خالتي برفه، أرجوك لا تطرديني».

قال زيهات ضاحكاً: «وحق القرآن معك حق».

اقتحمت برفه الصالون وتأملتهما وهما يتمازحان ويقهقهان. انتابتها القشعريرة كأنها تتنبأ بما تخبئ لهما الأيام.

«جمال، هذا أنت يا بني!»

نهض جمال احتراماً لها: «نعم خالتي، هذا أنا بلحمي ودمي». كأن برفه غير مقتنعة بالاحترام الذي يبديه لها جمال، نظرت إليه شزراً وقالت: «ماذا أقول يا بني، والله أعرف أن قدومك لا يبشر بالخير، لكن على الرحب والسعة... كلما اجتمعت بزيهات حلت مصيبة على رؤوسنا... لن تبدلا ما بنفسيكما، فماذا أفعل لكما؟... اقعد، اقعد، لا داعي للتظاهر بالاحترام»، ثم

عادت إلى المطبخ.

تبادل زيهات وجمال الأنظار وضحكا في عبهما، لكنهما حبسا ضحكاتهما خشية غضب برفه. أشاحا بوجهيهما وطفرت الدموع من عيونهما.

نظر جمال إلى ساعة يده. «ما عندي وقت أكثر من ساعتين»، قال وهو يمسح الدموع عن جفنيه، ثم عقب: «ألا تود الخروج قليلاً، لن نستطيع الكلام هنا، كما أنك بحاجة للترويح عن نفسك قليلاً».

«عمرك أطول من عمري، كدت أتعفن في البيت. هيا لنخرج»، قال زيهات ونهض. نادى أمه: «يا أم، أين أنت؟ سنخرج قليلاً».

«أنا أحضر الفطور يا ولدي، أين ستذهبان؟» سألت برفه وهي تدخل الصالون بسرعة.

«يا أم، يقول جمال إنه فطر وأنا لا أشتهي الأكل».

«يا ولدي، أرسلت كلجين هذا الصباح قرص عسل مع بهاره، لو تتذوقه على الأقل».

عندما لاحظ جمال أن برفه مشغولة بزيهات، استغلها فرصة وتسلل من وراء ظهرها.

«أعدك يا أم أني سآكله لاحقاً».

«متى سترجع؟»

«لا أعرف بالضبط، لكني لن أتأخر كثيراً».

«وهل ستخرج دون معطف؟»

«الشمس ساطعة في الخارج يا أم».

«نحن في الشتاء يا ولدي. وهل يوثق بشمس الشتاء؟»

لم يرغب زيهات في إطالة الحديث، فتناول المعطف من يد أمه وخرج ليلحق بجمال.

7

ما إن خرج زيهات وجمال حتى دخل خليل بيك حاملاً فخذ حمل. تطلع في برفه مزهواً، رفع الفخذ ومدحه كمن يمدح كنزاً عثر عليه: «صدقيني يا امرأة، لقد فتشت طويلاً، لكن تعبي جاء بنتيجة وعثرت على أحسن لحم. لو أنك رأيت الحمل! وأي حمل! لم تحط يداي بإليته. إياك أن تحتفظي به للعشاء وتطبخيه، بل شقفيه لنشويه مساء، زيهات يحب اللحم مشوياً».

رفعت برفه بصرها إلى وجه خليل بيك وأرخت لدموعها العنان، كأنها تريد التنفيس عن أوجاع تكتمها في صدرها منذ عهود. دار خليل بيك حولها، لكنه خشي أن يسألها عن سبب بكائها مباشرة. حاول مرات عدة أن يحتضنها، فكانت تبعده. لم تعرف برفه ذاتها كم بكت، إلا أن منديلها لم يعد يتشرب دموعها.

«ماذا هناك يا امرأة؟، بحق الله قولي ما الذي جرى لك؟» سأل خليل بيك وأخذ يديها بين يديه.

«اتركني بحالي، لم يحدث أي شيء»، قالت برفه

وهي تنشج.

«كيف لم يحدث شيء؟ لم أرك تبكين هكذا حتى هذا اليوم؟»

«لقد احترق قلبي».

«هكذا، تكلمي، فضفضي. علام احترق قلبك؟» قال خليل بيك وهو يقبل يديها.

«ما أدراني يا خليل، ما أدراني. فاضت روحي فبكيت».

«هل أجلب لك كأس ماء؟»

«من فضلك اجلب حبوبي أيضاً في طريقك».

أسرع خليل بيك في إحضار الحبوب والماء. رمت برفه حبة في فمها. شربت جرعتي ماء ونظرت إلى زوجها: «احترق قلبي على حالنا يا خليل... ألا ترى، أنت تستيقظ في الصباح الباكر، تذهب إلى السوق وتتعب طوال النهار، تنتقي أفضل أنواع الجبن، أفضل أنواع اللبن، أفضل أنواع اللحم وتأتي به... ولماذا تأتي به يا خليل ومن أجل من؟ أليس لكي يأكله ابننا؟»

«نعم».

«لكنه لا يأكل، لا يأكل، لا يأكل»، قالت برفه ودعكت علبة الدواء في قبضتها ورمتها على الجدار. ثم عقبت: «هذه القشدة الشبيهة بخمار عروس أبيض، يحلم أحدنا بأكل ملعقتين منها، أرش عليها السكر، أضعها أمامه، فلا يأكل. اليوم جاءت بهاره بقرص عسل أوصتها كلجين بإحضاره لزيهات. توسلتُ إليه أن يأكل ملعقة واحدة منه، لكنه لم يلتفت إلي حتى. لاحق جمالو وخرج وتركني أنا العبدة لله».

«جمال أتى؟»

«نعم يا سيدي، شرفنا حضرته».

«هذا الولد لا يبقى في مكان. سيموت يوماً على الطرق أو يعتقل».

«كلهم هكذا يا خليل، كلهم. قل لي من منهم يمكث في بيته؟ هؤلاء الشباب في عمر الورد يقضون حياتهم مشردين في الوديان والبراري».

«بالمناسبة، وقبل أن أنسى. جئت قبل قليل على ذكر بهاره. ألم يعطك زيهات جواباً؟»

«وهل كان غمي سيزداد إلى هذا الحد لو نطق بشيء.

المسكينة تروح وتجيء كل يوم. لكن يا خسارة... ابنك لم يرفع رأسه مرة واحدة ليلقي نظرة على البنت».

«ربما لا يحبها؟»

«سألته هذا السؤال أيضاً. قلت له: يا ولدي، إذا لم تعجبك بهاره فعندنا الكثير من العرائس. ابنة خالتك مثل الغزال، يستغني المرء عن الطعام والشراب ليشبع عينيه بالتملي في حسنها. إذا لم تعجبك هذه فابنة خالك ولا القمر، يخجل المرء من النظر إليها (رسمت حلقة بالسبابة والإبهام)، هكذا عيناها. إذا لم ترض بهذه، فابنة عمك مثل نور المصباح».

قاطعها خليل بيك: «وبماذا أجابك؟»

«ليته رد. أشعل سيجارة ودخل الحمام. قلت له: يا ولدي الصالون واسع، سأفتح لك النافذة لتدخن سيجارتك هنا. لم يلتفت إلي حتى. كأن روحه ماتت يا خليل، الولد لا يعرف الفرح والمسرة».

«قومي، قومي لنخرج قليلاً. أكاد أختنق».

«وأين نذهب، الطقس بارد في الخارج».

«هيا، هيا، زمهرير الخارج أفضل من هذه الكآبة».

8

سار زيهات وجمال بمحاذاة سور الحديقة العامة.

«لقد أصاب منا الانقلاب مقتلاً يا زيهات وشتتنا بين فار إلى الخارج وقتيل في الداخل أو معتقل»

«بلى»، قال زيهات وهو يحك ذقنه.

«أتتذكر يا زيهات. عندما كنا نريد شرب كأس عرق، كنا ننقب في المدينة كلها عن جحر نختبئ فيه عن الأعين..».

«وهل تُنسى تلك الأيام»، قال زيهات مفرقعاً أصابعه.

«كنا نخاف من الفضيحة إذا رآنا أحد... وعندما كنا ننتهي من زجاجة العرق، كنا نأكل بصلة حادة كي تغطي رائحتها على رائحة العرق..».

تبادلا النظرات وابتسما.

«وهل تعرف ما الذي جرى بعد الانقلاب؟» تساءل جمال وتنهد: «أنت كنت معتقلاً، لم تر بعينيك... افتتحت عشرات الحانات ومئات متاجر الكحول على

رأس كل زاوية وغدت الناس تشرب حتى في المقاهي. الشباب الملتحقين بالتنظيمات السرية ارتادوا هذه الأماكن ليبعدوا الشبهات عن أنفسهم بداية، إلا أنهم تعودوا تدريجياً عليها، أدمن بعضهم الكحول وبدأوا بتناول الحبوب، ثم صاروا مدمني مخدرات».

«ايه، ايه»، قال زيهات وهو يهز رأسه.

أضاف جمال: «في السنين التالية للانقلاب كان النضال صعباً جداً. توقفت بعض التنظيمات عن الحركة نهائياً، انحل بعضها، وجرت انشقاقات عديدة على غيرها. نحن لم نسمح بانحلال تنظيمنا، لكن قوانا لم تعد كما كانت».

«عسى خيراً، ماذا أقول!» قال زيهات.

«في تلك السنين القاسية كنا نتذكرك في كل حركاتنا، كنا نقول لو أن زيهات في مكاننا، لفعل ما نفعل..».

شعر زيهات بالخجل. نظر إلى جمال وابتسم له: «أنا أيضاً كنت أتذكركم في السجن. كنت أقول: سيفرج عني يوماً ما، فلأحافظ على شرفي كي أتمكن من النظر في عيون رفاقي».

«أنت أيضاً عانيت وتحملت الكثير يا زيهات. يكاد المرء لا يصدق ما يقال عن ذلك السجن الرهيب».

«لقد عانى الجميع يا جمال، الجميع».

«إلا أن الذين هربوا إلى أوروبا..».

«لا، لا، لا تقل هذا. الغربة قاسية. هم أيضاً تعذبوا كثيراً. اسمع! قبل الإفراج وصلت إليّ رسالة من رفيق يعيش اليوم في أوروبا. هل تعلم ماذا كتب لي؟ كتب: (أنا مشتاق لنهيق الحمير)».

انفجر جمال بالقهقهة. استند إلى سور الحديقة، وضع يده في بطنه ولم يستطع التوقف عن الضحك.

«الله يلعنك يا زيهات، أنت مهرج. لم أضحك كل هذا الضحك منذ زمن بعيد».

«أنا لا أمزح. ثم إني لا أدرك ما الداعي للضحك».

«قصدك أن رفاقنا الذين هربوا إلى أوروبا يعانون ليلاً ونهاراً لأنهم يحنون إلى نهيق الحمير؟» سأل جمال وعاد للضحك من جديد.

«هوش يا ولد! أنت الساخر الأبدي. لا عمل لك إلا الهزء بالناس، ما زلت جمال السابق».

«المهم، لنتحدث في شيء آخر»، قال جمال ووضع يده على كتف زيهات.

«لا، لا. ما دمت قد فتحت الموضوع، دعني أكمله. اسمع! لم يذهب رفاقنا إلى أوروبا ليستمتعوا بحياتهم هناك. أغلبهم كان محكوماً بعقوبات مشددة ولو لم يغادروا لكانوا قد قتلوا أو اعتقلوا. برأيي الحياة أفضل من الموت وأوروبا أفضل من السجن. ثم لو أن أمامك عقوبة حبس، لربما هربت أنت أيضاً. وأنا أيضاً، لو لم أعتقل، ربما كنت أعيش اليوم في أوروبا».

«هذا ما كنت أريد قوله. ولا اعتراض لي على سفرهم إلى أوروبا. كل ما أقوله هو أن تخليهم عن النشاط السياسي خطأ. هربوا، استقروا هناك وتخلوا عن ماضيهم. هل يجوز هذا؟ أنا ألومهم على هذا».

«اسمع يا جمال! جميل أن يكون للمرء رأيه في كل شأن. فمن له رأي قادر على التفكير. قد يحق لك القول إن ما سردتَه غير صحيح، لكن لا يحق لك بتاتاً أن تتهمهم بالتخاذل. ربما تخلى الرفاق يوماً ما عن التنظيم، ربما تابعوا النضال بشكل آخر، أو ربما

كفوا كلياً عن النضال لأسباب اقتصادية أو صحية أو غيرها، لكن لا يجوز أبداً اتهامهم وتخوينهم. للإنسان جسد، روح وذهن. الإنسان يتغير من حال إلى حال. يصاب بالإرهاق. ربما كان يريد النضال لكن قواه خارت. ما أدراك، ربما يعانون مواجع لا يودون التصريح بها».

«يكفي يا رجل، أوروبا مباركة عليهم. هم الآن هناك يلتذون بمتع الحياة هناك ونحن نتشاجر بسببهم هنا»، قال جمال ونظر إلى ساعته.

«أنت مخطئ يا جمال، أظن أننا لن نجد المتعة في أي بقعة من بقاع العالم».

«لم يعد عندي وقت كثير. سأتردد على زيارتك مستقبلاً. هذا الأسبوع عندنا اجتماع ويود الرفاق لو تحضره. سنفرح بك كثيراً».

«لا، لا. ليمر بعض الوقت».

«أنت أدرى. سأمر عليك بعد الاجتماع».

«أهلاً وسهلاً».

ترك جمال صديقه وحيداً. اقتعد زيهات الأرض

لصق سور الحديقة. دس حاشية معطفه تحته، رفع ياقته إلى أذنيه، أسند ظهره إلى الجدار وأشعل سيجارة. شعر بالقلق من زيارة جمال المقبلة: «لقاؤنا اليوم كان جميلاً... لكن لقاءً آخر!! كيف أبرره في المرة القادمة أني لن أعود للنشاط السياسي؟» تذكر رفاقه الذين قتلوا في السجن. ترحم عليهم. همس: «إلهي، أي نهاية تعيسة هذه؟» وأجهش بالبكاء.

9

كان زيهات وخليل بيك وبرفه يتناولون الفطور. قطعت برفه رأس الجبن في صحن وصبت عليه الماء الساخن من الإبريق. بين الفينة والأخرى كان زيهات يرمي لقيمة في فمه، يتبعها برشفة شاي ويتابع القراءة في الجريدة.

«كل فطورك أولاً يا حَمَلي، فالجريدة لن تهرب يا بني»، قالت برفه وقربت صحن الجبن من زيهات.

«أنا آكل يا أمي».

«صحيح أنك تأكل، لكن أي أكل هذا يا حبيبي. لا نفع في الطعام إذا لم تأكله بشهية».

سكب زيهات شاياً جديداً وقلب صفحات الجريدة.

دمدمت برفه في عبها: «ما كان التلفاز يكفينا، حلت علينا لعنة الجريدة أيضاً».

في هذه اللحظة دخل أخو زيهات روبار. سأله زيهات: «آه، من أين أتيت، ألم تذهب إلى العمل؟»

«لا يا أخي، اليوم أخذت إجازة».

«والسبب؟»، سألت برفه وهي تتطلع في عيني روبار.

«أردت أن أقضي اليوم مع أخي، هذا كل ما في الأمر».

قال زيهات: «إذن يمكننا التجوال في المدينة قليلاً».

«كيف ستخرجون في هذا الزمهرير يا أولاد، ألا ترون الثلج يتساقط؟»، سألت برفه وهي تنظر عبر النافذة إلى كتل الثلج المنهمرة خارجاً.

فرك روبار كفيه ونظر إلى أخيه فرحاً: «ما عليك إلا أن تقول إلى أين تريد الذهاب».

«طيب، إذن صب لنفسك كأس شاي واشرب بينما أرتدي ثيابي»، قال زيهات ودخل غرفته.

استفردت برفه بروبار وقالت له: «روبار، بني، حاول أن تفهم منه شيئاً يا ولدي».

«حسنا يا أمي».

خرج الأخوان إلى المدينة.

«هل نأخذ الحافلة، أم..».

«لا، لا، المشي أحسن»، قاطعه زيهات ومضى في طريقه.

كان زيهات يتطلع في البنايات التي تنطح السحاب حوله وهو يسير، لكن جل اهتمامه كان منصباً على الأطفال الواقفين في نوافذها والمتراكضين في الأزقة بينها، كأن المدينة انفجرت بهم أثناء اعتقاله.

سأله روبار: «المدينة كبرت كثيراً، أليس كذلك؟»

«لو أني لا أراها مرأى العين لما صدقت. كل هؤلاء البشر!»

«بعد الانقلاب قامت القيامة، بدأت موجات التنقل والترحال، هاجر القرويون إلى الأقضية، وهاجر أهل الأقضية إلى المدن. كان الجميع يود أن يختفي عن الأعين بين ليلة وضحاها..».

«ترى كم يبلغ عدد سكان المدينة اليوم؟» سأل زيهات.

«يقال إن عددهم يبلغ 940 ألف نسمة، لكن لا أحد يعرف العدد الحقيقي».

قاطعه زيهات: «سابقاً لم يكن فيها أكثر من 230

ألفاً... لكن هناك ظاهرة أخرى تلفت النظر، كأن هذه المدينة مدينة أطفال!»

ضحك روبار: «كثرة الأطفال خير يا أخي، معي حق؟»

«والله... ماذا أقول!»

قاطعه روبار: «لو لم يكن الأطفال بهذه الكثرة، لكنا انقرضنا الآن يا أخي».

«صحيح، لكن الأطفال يتطلبون تكاليف عالية، فهم لا يعيشون على الهواء، بل يحتاجون إلى المأكل والملبس، إلى مدرسة و..».

«لو سألت أبي لقال: (الذي شدق الأشداق، قسم الأرزاق)». قال روبار. توقف وتأمل وجه أخيه منفرج الأسارير: «بماذا تفكر، عساك تنوي الزواج، أم ماذا؟»

«والله يبدو أنه لم يبق لي ما أفعله، لقد قام الجميع بالواجب ولم يقصروا. وعددنا ما شاء الله على أحسن ما يرام».

تعلق روبار بكتف أخيه وتعالت ضحكاتهما.

قال روبار: «قبل أيام عدة قرأت في الجريدة خبراً،

لا أعرف من أين، عن أمريكا أو مكان آخر، لا أعرف، المهم، أجري إحصاء بين المتزوجين والعزاب وتبين بنتيجته أن المتزوجين يعيشون عشر سنوات أطول... فكرت وقتها، هذا لأن المتزوجين أسعد في حياتهم، لهذا..».

«طبعا ولم لا يا سيدي»، قال زيهات وتلكأ في الخطو كأن حذاءه يوجع قدمه.

«يا أخي، ألا تفكر أنت أيضاً في إدخال بعض السعادة على حياتك؟»

«يا روبار، وهل يمكن أن يكون جميع الناس سعداء؟» رد عليه زيهات وتنهد خفية.

ساد الصمت بينهما للحظة، إلا أنهما سرعان ما استعادا الكلام والمرح حتى وصلا مركز المدينة.

أمام محل للألبسة كان شاب وفتاة يصيحان بصوت مبحوح: «تفضلوا، شرفونا، لدينا في الداخل عروض أجمل، تفضلوا، شرفونا..» ولما نظر إليهما زيهات رفعا صوتهما أكثر: «تفضلوا، شرفونا، لدينا في الداخل...».

نظر زيهات إلى عروق رقبتيهما المنتفخة وشعر بالخجل.

غذ السير ليمر بهما بسرعة أكبر، وكأنه يشعر بالشفقة عليهما.

أمسك روبار أخيه من كتفه وأوقفه: «تعال يا أخي، دعنا نشتري لك معطفاً».

«تفضلوا، شرفونا..».

قال زيهات : «عندي هذا المعطف، وهو يكفيني».

«تفضلوا، شرفونا..».

«تعال رجاء»، قال روبار وجر أخاه من يده.

«تفضلوا، شرفونا..».

«والله العظيم، لا داعي لهذا»

«تفضلوا، شرفونا..».

«ندخل ونتفرج ثم نخرج».

لم يستطع زيهات الإفلات من يد أخيه فانصاع له ودخل المحل برفقته. لمس أقمشة معاطف عدة، تملى في ألوانها الزاهية، جرب معطفاً، معطفين بمساعدة العامل في المحل، تطلع في مرآة عالية إلى صورته، لكن لم يعجبه أياً منها. لم تكن روحه الشاحبة تتوافق مع المعاطف الزاهية والواثقة من إشراقها. انشغل به

العمال مدة وحاولوا إقناعه، إلا أنهم لم يفلحوا.

خرجا من المحل وتجولا في المدينة بعض الوقت. كأن بزيهات رغبة ملحة في إعلام أخيه بخبر مصيري، فيلتفت إليه بين الحين والآخر، إلا أنه يشيح بوجهه عنه كلما أبطأ روبار الخطى.

دخلا مطعماً ثم غادراه على وجه السرعة ليدخلا مقهى ويجلسا فيه. شرب زيهات رشفة من كأس الشاي وهو ينقر بأصابعه على الطاولة، ثم أشعل سيجارة وهو يراقب وجه أخيه من خلال دخانها. وأخيراً قال له: «روبار، أريد أن أخبرك بشيء يثقل علي».

نظر روبار إلى أخيه بود وهو يتوق لسماع ما سيقوله.

«أعرف أن الجميع سيُصدم، لكن علي أن أبوح بما في نفسي. أريد أن أرحل من هنا».

«إلى أين؟ ما الذي تقوله يا أخي»، سأل روبار فاغر الفم وأطرافه ترتعد. يداه وقدماه ترتجفان.

«أفكر بالانتقال إلى استانبول يا روبار. هذا أفضل

لنا جميعاً».

«أخي، كيف سيكون أفضل؟»

«لا تقلق علي، عندي أصدقاء ومعارف كثر هناك ولن يحدث لي شيء».

«أخي، كيف لن يحدث شيء! لو رحلت ستجن أمنا».

«صحيح، لكن أمنا ستجن أيضاً لو لم أغادر».

فقد روبار أعصابه. احمرّت عيناه كأن أحدهم رش عليهما ملحاً. بحلق في زيهات. نهض. «لا أفهم أي إنسان أنت يا أخي. لا تفكر إلا في نفسك»، قال وخرج مسرعاً.

هرول زيهات خلفه.

كان الوقت مساء وكانت الريح قارسة. وثلج ناعم يتساقط على المدينة وكانت الطرقات المغطاة بالجليد موحشة. بعض الرجال يرفعون ياقات معاطفهم ويستعجلون الذهاب إلى منازلهم. مشرد حافٍ يحتمي بجدار ويدفئ نفسه بجرعات العرق. والحافلات الصغيرة تتخاطف فلول المشاة.

كان زيهات وروبار يغذان السير كأن أحدهما يهرب من الآخر والثلج الذي تثيره الريح يعصف بوجهيهما كشظايا زجاج مهشم. كانا مختنقين بالكلمات، لكن لا روبار التفت إلى أخيه ولا زيهات نطق.

10

هذا الصباح لم يحضر الكثيرون إلى بيت خليل بيك. لم يكن أمام الباب أكثر من خمسة إلى ستة أزواج أحذية. مع تباشير الصباح الأولى جاءت ابنته حاضنة رضيعها ابن الأربعين يوماً برفقة زوجها. تبعهما ولدا خليل بيك وزوجتاهما وأبناؤهم. كان تلفاز خليل بيك صامتاً، إذ لم يعد يعبأ بكل ما يجري في الدنيا. لم توص برفه أحداً، لم توجه أمراً إلى ابنة أو كنة، لم تسخّر ابناً أو صهراً، ولم تسكت حفيداً. ظلت الوسائد والبسط المطرزة بالزهور والطيور في الخزانة المسدودة. لم تصدر قرقعة الفناجين والصحون الخزفية من المطبخ ولا وزعت الصبايا القهوة والشاي على الضيوف.

بقلم أسود عريض كتب دارا اسم أخيه على حقيبة السفر ودوّن تحت الاسم رقم هاتف المنزل، ثم وضع الحقيبة أمام الباب. نظرت برفه إلى الحقيبة وقلبها يتفطر.

«كنت أظن أني لن أرى حقائب السفر مرة أخرى»،

قالت وأجهشت بالبكاء.

نظر الجميع إلى الحقيبة وتدفقت الدموع من عيونهم.

نظر زيهات إلى الساعة، ثم إلى أبيه. وعندما التقت نظراتهما طأطأ الاثنان رأسيهما. نظر خليل بيك أيضاً إلى ساعته ونهض. لم يتعطر. لم يمشط شعره الأشقر. وضع قبعته المربعة على رأسه. دس قدميه في حذائه وخرج. تبعه زيهات والآخرون.

كانت بهاره تنظر إلى السيارة الصفراء أمام باب بيت برفه وقد شدت أصابعها على عقد الخرز، كأن أحدهم يريد خنقها. عندما رأت زيهات يخرج من البيت حاملاً حقيبة السفر، انقطع خيط آمالها وتبعثر الخرز الملون في النافذة كأطياف أحلامها التي تبخرت على زجاج النافذة. لبرهة، بالكاد تكفي لترفّ فراشة بجناحها، ألقى زيهات نظرة على بهاره وركب السيارة.

وذهب زيهات ...

11

دخل زيهات درباً طويلاً وبعيداً وسار فيه، لا يدري ما الذي ينتظره في المدينة التي يسافر صوبها. لم يكن يدري كم سيدوم مكوثه فيها، ولا إن كان سيعود منها أم أنه لن يعود. عبرت الحافلة أقضية ومدناً، سارت على ضفاف بحيرات وأنهار، وعبرت جسوراً وأنفاقاً وزيهات يفكر. كان قد أدار ظهره لمدينته، لأهله، لبيته، لأصدقائه ورفاقه، لبهاره، التي ربما كانت ستصير ربيعاً لعمره الشاحب، إلا أنه كان يبدو أخف حملاً، كأن الذي أدار ظهره لكل ما مضى ليس هو. كان قلبه قد ارتعش ارتعاشة ضعيفة عندما ركب السيارة الصفراء وارتعش مرة أخرى قبل صعود الحافلة، عندما دس والده في يده رزمة نقود، وخلاف هذا كان يشعر بمزيد من الخفة والسعادة كلما ابتعدت به الحافلة أكثر.

بعد سفر يوم وليلة اختلطت رائحة عرق الركاب بهواء البحر المالح في استانبول. عندما قفز زيهات من

درج الحافلة تلقفه صديقه حسن في الأحضان.

«فكني يا ولد، فكني، لقد كسرت أضلاعي»، قال زيهات مرحاً وجرجر نفسه من بين يدي حسن.

«لن تفلت من يدي ما دمت حياً»، رد عليه حسن ومسح دموعه.

تناول زيهات حقيبته وتوجه الصديقان إلى محطة المترو.

«يا الله، قل لي يا رجل، ما هي أحوالك؟» قال حسن ولف ذراعه حول رقبة زيهات.

«كيف ستكون أوضاعي، كما تراني».

«كيف هو وضعك الصحي؟»

«صحتي جيدة، جيدة، عال العال»

«يوجد هنا أطباء قديرون. ارتح أياماً عدة، ثم سآخذك ليكشفوا عليك».

شعر زيهات بنخز في قلبه، لكنه كتم ما في نفسه:

«وهل أبدو سيئاً لهذه الدرجة؟»

«لا، لا، لم يكن هذا قصدي، تبدو بصحة جيدة،

لكن الأفضل أن يجري لك الطبيب الفحوص... أنا أيضاً راجعت طبيباً عندما أفرج عني، فأوصاني بالمراجعة مرة في الشهر ومازلت أواظب عليها كل فترة».

«إذا رأيت نفسي محتاجاً لطبيب سأخبرك».

نزلا من المترو وركبا حافلة صغيرة. سأل حسن: «وما هي أخبار الخالة برفه والعم خليل؟»

«أبي ما زال يحتفظ بقوته، لكن أمي تعبت قليلاً. آفشا أنجبت ولداً. وروبار ودارا يعملان... وما هي أخباركم أنتم، العم سيدو، الخالة روشه، سمرة والأولاد...».

كلما نطق زيهات باسم، كان وجه حسن يتشنج، فلكل اسم قصة طويلة. فكر أن الأفضل ألا يقول شيئاً ويوفر على صديقه مآسي أسرته، إلا أنه لم يتمالك نفسه: «نالت الشيخوخة من أمي يا زيهات، لم تعد تسمع وبدأت بالخرف.. أنا وسمرة لم نعد نتفق إطلاقاً... وغدا الأطفال حبلاً مربوطاً إلى أعناقنا، فلا نقدر على الطلاق أيضاً... أما أبي فقد رحمه الله..».

«لا يا رجل، لا تقل هذا».

تنهد حسن. نظر إلى زيهات وطأطأ رأسه.

قال زيهات: «لا حول ولا قوة إلا بالله. هذه حال الدنيا. كم كنت أتمنى رؤيته... ليتني ما سألت عنه ولا عرفت».

«هذه هي الدنيا، ماذا بيدنا لنفعله».

«متى توفاه الله؟»

«العام الفائت، في مثل هذا الوقت تقريباً».

نزلا من الحافلة. سار حسن بجوار زيهات. دخلا زقاقاً.

«لا أفهم، كيف لم يقل لي أحد كل هذا حتى الآن».

«لأن لا أحد يعرف بهذا».

استغرب زيهات وتساءل: «كيف لا يعرف أحد؟» وهو يحدق في عيني حسن.

أبطأ حسن سيره وقال: «كيف أشرح لك ما جرى يا زيهات. الله وحده يعلم أي مصائب حلت على رؤوسنا. عندما خرجت من السجن كانت حالي أسوأ

بكثير من حالك. كانت كل أماني أن أصل إلى البيت، أستحم وأنام... لم أتوقف ذلك الصباح في أي مكان، بل توجهت من فوري إلى القرية. كانت الأيام تتعاقب بوداعة ولمّا ظننت أني تعافيت تماماً من معاناة السجن. خرجت لأتمشى قليلاً. وعلى أطراف القرية سمعت صوت طلقات نارية. تساءل القرويون عن مصدر الصوت وسرعان ما انتشر خبر مقتل بشير المخبر. قلبت مختلف الاحتمالات في رأسي وقررت بالنتيجة أن أغادر البيت بأقصى سرعة. حالما خرجت هجم الجنود على البيت. وبما أنهم لم يجدوني، فقد أخذوا أبي رهينة لأن والد بشير ألصق التهمة بي. هاجم إخوة بشير وأبناء عمومته بيتنا بينما أبي في المخفر. وبأسرع ما استطاعتا، أمسكت أمي وزوجتي بيد ابني، الذي كان في الخامسة من عمره آنذاك، وركضتا إلى الخارج. قالت أمي إن ألسنة اللهب ارتفعت فوق بيتنا قبل أن يصلوا إلى تخوم القرية. بعد أيام عدة أفرجوا عن أبي. استأجرنا بيتاً في دياربكر، لكننا هناك أيضاً لم نعرف طعم الراحة، الشرطة من ناحية وأهل بشير من ناحية

أخرى... أخبرنا الجيران بأننا سنرحل إلى مرسين وهربنا في ليلة ليس فيها ضوء قمر... المهم، أتعرف ما هو الشيء الذي يحز في نفسي أكثر ولن أنساه طوال حياتي؟ عندما أدرك أبي الموت، كان يتمنى أن يرى قريته حياً أو ميتاً، لكنه لم يعلمني. رغم أني كنت سبب شقائه، إلا أنه راعى ظروفي حتى وهو ينازع. قال لي: (بني حسن، لا تنقل جثماني إلى أي مكان، أتسمع؟ أرض الله هي هي، ولا فرق بين أن يدفن الرجل هنا أم هناك) ودفناه هنا».

كان حسن متشبثاً بزيهات وهو يرتجف. قدم له زيهات سيجارة ودخنا وهما يسيران. توقف حسن أمام محلٍ كُتب على واجهته «محل غسيل البسط» ونظر إلى زيهات قائلاً: «ها قد وصلنا. اسمي هنا داوود، فلا تخطئ في مناداتي».

أسبل زيهات جفنيه وهو يقول: «طيب» ودخلا المحل. في الداخل كان شاب في حوالي العشرين من العمر، فارع القامة ضامر العضلات، ينظف بساطاً بالمكنسة الكهربائية. عندما لمح حسن وزيهات أطفأ

المكنسة بأصابع قدمه المبللة.

نظر حسن إلى قدمه الحافية وصرخ فيه: «صبرو، يومياً أقول لك لا تطفئ المكنسة بقدمك العارية المبللة، فقد تلسعك الكهرباء، هل تريد أن تموت؟»

أخفض صبرو رأسه ناظراً إلى قدمه المذنبة، فتح أصابعه وضمها ملتزماً الصمت.

جر حسن كرسياً قرب الطاولة لأجل زيهات، ثم توجه إلى صبرو وسأله: «عندك شاي؟»

«عندي»، قال صبرو واتجه إلى مؤخر المحل.

جاء صبرو بالشاي وعلامات الاستياء بادية على محياه. وضع حسن يده على رأسه ومسح شعره راغباً في أن يطيب خاطره: «صبرو، يا بني، أصبحت عصبياً في الفترة الأخيرة، أحياناً أرفع صوتي عليك، فلا تأخذ على خاطرك، أنا مثل أبيك».

عندما قال حسن «هذه الفترة»، أفلتت من صبرو ضحكة، فهو يعمل في الدكان منذ سنتين تقريباً ويسمع الكلمات نفسها ثلاث إلى أربع مرات في الشهر: «صبرو، يا بني، أصبحت عصبياً في الفترة

الأخيرة...».

«ولا يهمك أخي داوود»، قال صبرو مرحاً.

كان حسن سريع الغضب إلا أنه يندم بسرعة وتعوّد صبرو على هذه الشطحات مدركاً طيبة قلبه، إلا أنه كان يشعر بخجل شديد إذا عنفه بحضور الغرباء.

سأل حسن: «هل لديك ما تخبرني به؟»

«غسلت البساطين الأحمرين، لكنهما ثقيلان فلم أقدر على نشرهما وحدي. جفت أربعة بسط ويجب أن أسلمها إلى أصحابها اليوم، فقد اتصلوا قبل وصولكما».

«هل أكلت شيئاً؟»

«لا».

«نحن أيضاً لم نأكل. أحضر لنا طعاماً لنأكل حتى نقدر على العمل».

كان زيهات يتثاءب ويفرك عينيه مصارعاً النوم. أحياناً كان يغمض عينيه، فتنزل رأسه على صدره ويستيقظ مرتعباً. ربت حسن على ركبته: «سنتناول الفطور أولاً. في ركن قصي من مؤخر المحل كنبة

يمكنك أن تأخذ قيلولة عليها ثم نذهب إلى البيت، موافق؟»

«هل يزعجك إذا لم آت إلى البيت؟»

«ولماذا لا تأتي؟»

«هكذا، دون أي سبب».

«ليتني لم أرو لك أخبار البيت».

«لا، لا، ليس هذا هو السبب، فأنا أشعر بالاختناق بين أربعة حيطان، ثم إني بصراحة لا أرغب في رؤية أحد من المعارف خلال هذه الفترة».

«كنت أتمنى أن تزور العائلة».

«لم أقل إني لن أزورهم، قلت دعنا ننتظر بعض الوقت، ممكن؟»

«على راحتك».

بينما زيهات يتحدث إلى حسن، كان يلقي نظرات على الكنبة في خلفية الدكان. سأل: «هل ينام صبرو في الدكان؟»

«لا. عائلته انتقلت إلى المدينة. عندما وزع الجيش السلاح على القرويين، لم ترض العائلة أن تتسلمها.

وذات ليلة هربت من القرية إلى هنا. إنه ولد طيب. لا تخف منه».

دخل صبرو مقاطعاً الكلام وتوجه من فوره إلى المطبخ.

مال زيهات على حسن وهمس له: «لم يكن هذا قصدي. إذا لم يكن أحد ينام على الكنبة، فسأقضي مدة في المحل».

«في هذا الشتاء!؟»

«المدفأة موجودة. ثم إن المحل أيضاً كالبيت، فيه مطبخ ومرحاض، وماذا أريد أكثر من هذا؟»

نوى حسن أن يعترض، إلا أن زيهات منعه: «الله عليك يا حسن لا تقل شيئاً. أريد أن أظل وحدي فترة».

«على راحتك».

فطروا. دخنوا السجائر وشربوا الشاي. أخرج حسن كيس أدوية من درج الطاولة، تناول حبوباً من العلب والزجاجات وشرب بعدها ماء، أما زيهات فقد ذهب واستلقى على الكنبة، بينما بدأ حسن وصبرو

أعمالهما التي انتهيا منها قبل حلول المساء. اغتسلا وبدلا ثيابهما وزيهات لا يزال نائماً.

«صبرو، بني، هل شايك ساخن؟» سأل حسن ودخل المكتب.

«نعم أخي داوود»، قال صبرو وأحضر له كأس شاي.

«صب كأسا لنفسك أيضاً وتعال لنشرب الشاي معاً».

سكب صبرو كأس شاي لنفسه أيضاً وذهب إلى حسن في المكتب.

«صبرو، زيهات صديق عزيز جداً. سيبيت في المحل حتى نؤمن له مكاناً. لم أحدثه في الموضوع بعد، لكن ربما يعمل معنا. أردت أن تكون على علم بهذا».

«طيب أخي داوود، كما تريد»

«هذا كل ما أردت قوله لك. فإن أردت الذهاب فاذهب. نحن سنخرج بعد قليل».

قال صبرو: «طيب» وخرج.

أشعل حسن سيجارة. مشى في المحل جيئة وذهاباً

وفكر: لو كان زيهات مكاني لما تركني أنام في المحل، أحقاً لا يوجد بيدي حل؟ حل... حل... غرفة وصالون... سمرة والأولاد ينامون في الغرفة... وفي الصالون ننام أنا وأمي... لو فرغنا الغرفة لزيهات ... لكن سمرة لن تقبل..».

تنحنح زيهات مرات عدة ورفع الغطاء عن رأسه. توقف حسن وأراد ألا يربك زيهات، فبدأ يطوي بساطاً جافاً وأسنده إلى جدار. كان كل منهما ينظر إلى أقدام الآخر من تحت الأبسطة المعلقة. سعل زيهات مرة أخرى، صفى حنجرته ومد قدميه على الأرض.

قال حسن: «هل استيقظت؟ هل نمت قليلاً أم لا؟»

«قليلاً! كم الساعة الآن؟»

«الساعة... اللعنة، حتى عيناي لم تعودا تريان جيداً، أظن أنها تقترب من السادسة».

«أف! لقد نمت كثيراً»، قال زيهات ونهض.

صب حسن الشاي في كأسين كبيرتين ودخل المكتب: «ماذا يشتهي قلبك أن نفعل اليوم؟»

«ماذا نفعل؟ ألن تذهب إلى البيت؟»

«لا تشغل بالك بالبيت، اتصلت بهم، لا تشغل بالك».

«ماذا أقول، أنت أدرى».

«أفضل أن نذهب إلى مطعم أو حانة ونشرب ونشرب ونشرب حتى الصباح ونعدل أدمغتنا الليلة».

«فكرتك ليست سيئة».

«إذن لنذهب».

أنزلا الشبكة المعدنية الثقيلة وأغلقاها بأربعة أقفال وانطلقا نحو المدينة. فجأة سأل حسن: «هل أخذت بطاقتك الشخصية؟»

«نعم»، أجاب زيهات إلا أنه تحسس جيوبه رغم هذا.

«بعد مقتل بشير استخرجت بطاقة شخصية باسم أحد أقربائي، أدى الخدمة العسكرية وصفحته بيضاء. كأني ولدت للتو. أستخدمها أينما حللت».

انعطفا في الطريق وسارا على الرصيف وأمامهما

تتدفق سيول نتجت عن مياه المطر الذي هطل قبل خروجهما. كانت العربات تئز في مرورها بهما. من خلفهما قدمت حافلة بسرعة الطلقة. رفع لها حسن يده من بعيد ورغم أن السائق داس المكابح إلا أنها توقفت على مبعدة عشر خطوات منهما. ركض حسن وغذ زيهات السير وهو يهتف لاهثاً: «أظن أنها محشورة بالناس، الأفضل أن ننتظر حافلة أخرى».

«لا، لا، اركض. في هذا الوقت تكون جميع الحافلات مملوءة بالركاب».

كانت الحافلة مكتظة بالركاب على آخرها بين جالس وواقف. عندما توقفت تراطم جميع الركاب بعضهم ببعض وصرخوا بالسائق متذمرين. صرخ بعضهم، وتهجم عليه أحدهم. راقب السائق القيامة القائمة خلفه في المرآة العاكسة ويده على المقود غير مبالٍ بها. حاول بعض الركاب الخيرين إصلاح ذات البين وخلال الجلبة كان حسن قد وضع زيهات أمامه ودفعه إلى الحافلة دفعاً. وفي هذه الأثناء اندفع أمامهما رجلان لا يعلم أحد من أين انبثقا وحشرا نفسيهما

بين الركاب المتجمعين على الباب وتغلغلا بينهم حتى مؤخر الحافلة. انغلقت درفتا الباب ونشرت الإطارات دخاناً. تركت الحافلة وراءها رائحة البلاستيك المحترق واختفت.

سأل زيهات : «ما هذا يا رجل؟ كأن الناس في حرب، الكل يركض».

رد عليه حسن: «عليك أنت أيضاً أن تركض يا زيهات. إذا بقيت تراقب دون أن تتحرك، فسنبقى في مكاننا إلى الصباح».

«قصدك علي أن أطير!» تساءل زيهات. تبادلا النظرات وضحكا.

علق حسن: «الركوب سهل. بأي شكل من الأشكال ستتمكن من الركوب. الصعوبة الأكبر في النزول».

«لا يا رجل».

«ما إن تتوقف الحافلة - وهي لا تقف تماماً بأي حال من الأحوال - حتى تتحرك ثانية بينما نصفك مايزال في الداخل. وقتها أنت وحظك».

قال زيهات شيئاً ما، إلا أن حسن لم يفهمه بسبب القهقهات. وبينما هما يضحكان توقفت أمامهما حافلة. لم يدرك زيهات كيف صعد ولا متى تحركت الحافلة، لكنه وجد نفسه فجأة بين رجال عدة رؤوسهم متدلية وهو يمسك بعمود بارد ورأسه يهتز أمام أنف رجل آخر على إيقاع الحافلة. عندما كانت الحافلة ترتج كانت قمة رأسه تصطدم بسقفها. قال له حسن همساً: «اخفض رأسك». تحسس زيهات رأسه، أخفضه وضحك في عبه.

«لا تضحك»، قال حسن وهو يهز رأسه «فمجرد كلامنا بالكردية يزعجهم، وحضرتك تضحك علاوة على هذا، ألا تراهم ينظرون إلينا باشمئزاز».

لم يرد زيهات ، كف عن الضحك متخاذلاً.

كانت الحافلة تقذف ركاباً من جوفها وتبتلع مكانهم آخرين وهي تتوغل في الطريق الأسود وتسير. سأل زيهات : «هل ظل الكثير؟»

«لا، لا، لقد وصلنا. تقدم نحو الباب، سننزل»، قال حسن ونادى السائق: «إذا سمحت، قف في أقرب

موقف».

انفتح الباب الآلي والعجلات ما تزال تدور. قفزا من السيارة. تعثر زيهات خطوات عدة قبل أن يتمكن من التوقف.

«هل أنت بخير يا زيهات؟» سأل حسن وعندما رآه سليماً معافى انطلق في الضحك.

«شيء عظيم فعلاً. بشرفي عبور الحدود السورية أسهل من ركوب الحافلة»، قال زيهات وقهقه بدوره.

تمشيا قليلاً. دخلا شارعاً مخصصاً للمشاة، ثم انعطفا منه في طريق تصطف على جانبيه المطاعم وحانات البيرة.

قال زيهات: «هذا المكان مزدحم بالمارة».

«هذا لا شيء. لو رأيت هذا المكان في عطلة نهاية الأسبوع لن تستطيع أن تخطو فيه خطوة واحدة».

وبينما هما يتحدثان مر بهما شاب وهو يلف ذراعه حول رقبة فتاة. نظر زيهات إليهما وتعلق ذهنه برقبة الفتاة.

سأل حسن: «ماذا تشتهي يا زيهات، بيرة، عرق..».

رد زيهات : «أشتهي... أشتهي العرق».

«إذن لندخل مطعماً».

«حسناً».

سارا إلى نهاية الزقاق. أغراهما العمال المنتشرون في الشارع بدخول الحانات، إلا أنهما لم يخضعا للغواية. عادا إلى أول الزقاق ودخلا مطعماً. نزولاً عند رغبتهما أسرع النادل في إحضار زجاجة عرق كبيرة وبعض المقبلات وقيد طلباتهما الأخرى.

«يا الله يا زيهات، أهلاً وسهلاً بك»، قال حسن ورفع كأسه: «بصحتك».

«بصحتك»، قال زيهات وقرعا كأسيهما. تبادلا نظرات سعيدة وامتلأ قلباهما فرحاً.

«والله تحسنت حالما رأيتك»، قال حسن وفتش جيوبه بحثاً عن السجائر، لكنه لم يجدها. فمد له زيهات علبته وأشعلا سيجارتيهما. «لو بقيت معي سأرمي كل الأدوية التي أتناولها، لقد قتلتني يا رجل».

«صحيح، ما كل هذه الأدوية التي تناولتها هذا الصباح دواء بعد الآخر».

«أدوية مجانين».

«آخ، كف عن المزاح يا رجل».

«لا تصدقني؟ أنا فعلا لا أمزح».

«ما قصدك؟»

«أنا أيضاً لا أعرف يا زيهات. تراكمت المصائب فوق رأسي وبدأت ذات يوم أشعر بأني سأجن... وهذا مرض لا يمكنك أن تجاهر به، وإذا أعلنت أنك مصاب به فإما أن يضحك عليك الناس أو يشفقوا عليك. لم يبق إلا القليل حتى أصبح (حسن المجنون) ولَمَا زال هذا اللقب حتى أحفاد أحفادي. كان الناس سيقولون: (بيت حسن المجنون)، (أولاد حسن المجنون)، (أحفاد حسن المجنون)، مثلما كانوا يقولون عن حسو... كان في قريتنا رجل اسمه حسو، فات عمره وهو لم يتزوج بعد... كان الجميع يقولون: (حسو ليس رجلا) ويسمونه (حسو المخصي)... تزوج المسكين وأنجب أطفالا، لكن لا أحد كان يعرفه إلا باسم (حسو المخصي)».

«انس قصة حسو الآن، ماذا فعلت أنت؟»

«هنا يوجد مستشفى أرمني. كان زبائن المحل يأتون على سيرته ويصفونه بأحسن الأوصاف ويقولون إن أطباءه أمهر الأطباء. يوماً ما شعرت أني لست على ما يرام فارتميت في سيارة تاكسي وتوجهت فوراً إلى المستشفى الأرمني. كيف أصف لك الوضع يا زيهات. في حياتي كلها لم أر طبيباً بكل هذا العلم والطيبة. أنت أيضاً راجعت أطباء وتعرف أنهم يعاينون المريض دقيقة أو دقيقتين، يكتبون وصفة ويدسونها في يدك، ثم يطردونك من العيادة. لكن الطبيب الأرمني فحصني ساعة كاملة، طلب لي الشاي مرتين، سألني كل ما يخطر على البال وسجل أجوبتي في دفتره. وبعدها سلمني وصفة وطلب مني مراجعته مرة في الأسبوع طوال ستة أشهر. في الأشهر الثلاثة الأولى كان يقضي معي ساعة كاملة، ثم خفض الوقت إلى نصف ساعة».

تجرعا ثمالة كأسيهما وشربا جرعة ماء. ملأ النادل كأسيهما. أكل زيهات ملعقة من صلصة خيار بلبن بينما مضغ حسن ثلاثة أوراق من البقلة الحمقاء، ثم تساءل ببراءة: «أعرف أني أصدع رأسك بمشاكلي».

«أبداً، تابع الكلام، أنا أصغي».

«المهم. بعد أسبوع ذهبت في الموعد المحدد. صافحني الطبيب، دعاني للجلوس، ذهب إلى مكتبه وأحضر قلمه ودفتره. سألني مبتسماً بصوت عطوف: «كيف حالك؟». قلت له: «لقد تحسنت قليلاً»، فعقب: «اسمع يا حسن، لا أرجو منك إلا شيئاً واحداً، وهو أن تقول لي كل شيء بصراحة... في الأسبوع الفائت لم ترد على بعض أسئلتي بصراحة كاملة. أرجو ألا تعيدها».

«صحيح، لكن أنا أيضاً عندي رجاء».

«تفضل».

«أرجو ألا تكتبوا ما أصارحكم به».

«لماذا؟» سألني باشاً وهو يحدق في مستغرباً.

«أنا أخاف من الأقوال التي تسجل لأنها تذكرني بالاستجواب. عندما أراكم تسجلون ما أقول أتصور أن مصيبة ستلحق بي ولهذا لا أستطيع التحدث براحة».

وضع قلمه جانباً، تأمل فيما قلته قليلاً، طلب

كأس شاي، ثم نظر إلي بشوشاً وهو يظهر تفهماً عميقاً لوضعي وقال: «كما تريد» وأغلق دفتره.

رفع النادل الصحون الفارغة، بدل منافض السجائر المملوءة، أحضر صحوناً نظيفة وسيخي شواء. قال حسن: «كل يا زيهات، الشواء يفقد مذاقه عندما يبرد» وطلب من النادل بصلاً وفلفلاً وبدأ بتناول الطعام.

سأل زيهات: «وماذا حدث بعد ذلك؟»

«بعدها رويت له كل آلامي. حدثته عن السجن وكوارثه، عن فرارنا من القرية ولجوئنا إلى استانبول، عن وفاة أبي في الغربة وحتى عن علاقتي بسمرة. هناك أمور يصعب الكلام فيها، لا يمكن النطق بها، يخجل المرء من الإفصاح عنها... سابقاً كنت أظن أننا نستطيع كشف كل أسرارنا أمام أصدقائنا، لكن هذا غير صحيح يا زيهات ، نحن نرتاح أكثر عندما نفضفض أمام الغرباء».

«وكيف هو وضعك الآن؟»

«الآن أنا بخير. واظبت على مراجعة الطبيب

وشفيت. قبل مدة وجيزة راجعته من جديد، وصف لي حبوباً أخف تأثيراً وقال إن وضعي تحسن كثيراً... يا رجل قل أنت أيضاً شيئاً ما، أأظل أثرثر وحدي؟»

«وماذا أقول يا حسن! لا شيء عندي»، قال زيهات ومسح يديه بالمنديل.

«لابد أنك التقيت بالرفاق، من منهم تردد عليك؟ أعرف أن جمال زارك، لأنه الوحيد الذي يعرف رقم تلفوني».

«الرفاق بعضهم مايزال يثابر على النضال وبعضهم توقف عن العمل السياسي... وأنا على كل حال لم أر الكثيرين منهم. قبل سفري جاءني جمال. كان عندهم اجتماع، أراد أن أرافقه لكنني قلت لنؤجل الموضوع قليلاً ولم أرغب في أن أصارحه بأني سأكف عن النشاط السياسي كلياً. أصلاً ما كان سيفهم وجهة نظري. ثم إني رأيت سليمان أيضاً. ذات يوم جاء لزيارتي دون إعلان مسبق. فرحت به كثيراً. وحين هم بالمغادرة اختلى بي وقال: «إن شباب اليوم ليسوا كجيلنا وأنا لا أطيقهم البتة. دائماً كنت أقول لو يخرج زيهات من

سجنه ونعيد أيام النضال الحقيقي»، لم أعرف بماذا أرد عليه، فلم أشف غليله».

سأل حسن: «وبرأيك، كيف علينا أن نتصرف؟»

«أظن أننا لو تمكنا من الحفاظ على أنفسنا ولم ننحدر إلى الحضيض... كي لا يعيرنا أحد: انظروا ماذا كانون يقولون بالأمس وماذا يفعلون اليوم».

«معك حق»، قال حسن.

رفع النادل الصحون الفارغة، جاء بصحنين نظيفين جديدين، ملأ كأسيهما من جديد ووضع أمامهما صحن فاكهة.

قال حسن وهو يمضغ حبة عنب: «لم يكن عندي وقت للاستفاضة في الكلام صباحاً حول هذا الموضوع، هل ستبقى هنا، هل سترجع، ماذا تنوي أن تفعل؟»

«الآن أفضل البقاء هنا، لكن لا بد من العثور على عمل». «أي عمل؟»

«مهما كان».

«إذا كنت موافقاً، يمكنك العمل معي في المحل».

«لكن أنتما تعملان فيه».

«قبل أن أفتحه كنت أعمل في تنظيف واجهات المحال التجارية ولم يكن إيراد العمل سيئاً. إذا عملت معي، سأعمل أنا من الصباح إلى الظهر في التنظيفات وأعود بعدها إلى المحل. وسنتقاسم الإيرادات بالتساوي».

فتح زيهات فمه راغباً في الاعتراض، إلا أن حسن قاطعه: «لا تقل لا يا زيهات. الأفضل لنا أن نبقى معاً».

«صحيح، لكني لا أستحق نصف الإيرادات».

«لا تقل هذا يا رجل، أنت تستحق كل الإيرادات».

«لا، لا، لنتفق على شيء آخر... أفضّل أن أتمتع بالحرية شهرا أو شهرين على الأقل. كيف أعبر لك؟؟ أعني لا أرى نفسي مستعداً للعمل الآن.».

«على راحتك، خاصة أن العمل ليس كثيراً هذه الفترة».

«إذن اتفقنا».

تبادلا النظرات ورفعا الأنخاب.

«على شرف الحياة الجديدة يا زيهات».

«صحة».

بعد أن شربا كأسيهما تسلل الخدر إلى رأسيهما فغادرا المطعم وسارا عبر زقاق ضيق تفوح منه رائحة السمك، ثم دخلا شارعاً عريضاً وأخذا سيارة تاكسي. عندما وصلا إلى الدكان كان الليل في الهزيع الأخير. رفعا الشبكة المعدنية قليلاً ودخلا الدكان زحفا، ثم أنزلا الشبكة من الداخل.

كان النعاس يغلب حسن ويود النوم دقيقة قبل الأخرى. جلس في أريكة، دس وسادة خلف عموده الفقري، مد ساقيه على الكرسي المقابل والتحف بسجادة. قال: «زيهات، سنكمل الحديث غداً»، ثم غطى رأسه بالسجادة.

سأله زيهات: «هل ستنام هناك؟ الكنبة تسعنا معاً».

«لا، لا، أنا مرتاح في الأريكة»، صدر صوت حسن من تحت السجادة.

تذكر زيهات رقبة الفتاة التي رآها مساء. أغمض عينيه، رافق الفتاة ولف ذراعه على رقبتها، دس فمه

فيها، ودس يده تحت بلوزتها، رفع مشد صدرها ودعك نهدها. أبعدت الفتاة يده وهي تضحك، كأن أحداً يدغدغها، ووثبت مبتعدة كخشف غزال. مد زيهات ساقيه، تمطمط في رقاده وتحسس جسده... شعر بخدر لذيذ... مد يده إلى عضوه ودلكه...

12

عندما رفع صبرو الشبكة المعدنية صباحاً، فزع حسن وزيهات. نادى حسن: «صبرو، هذا أنت؟»

«نعم، نعم، أنا يا أخي داوود».

«لقد أرعبتنا يا ولد».

«قبلاً كانت الشبكة مثل الساعة، لا أعرف ما الذي جرى لها».

«ربما جفت المفاصل وتحتاج شحماً».

«سأرى ما يمكنني فعله».

نهض حسن. رتب المحل مع صبروا وبدأ بإعداد الفطور.

«صبرو، أنا سأضع الشاي على النار. اذهب أنت إلى البقالية وأحضر كل ما لذ وطاب. هناك نقود فراطة في الدرج»، قال حسن. وضع الإبريق على النار وأخرج ثلاث بيضات من البراد وهو يسأل زيهات: «كيف تحب البيض، مسلوقاً أم مقلياً؟».

«لا فرق»، رد عليه زيهات متثائباً. أشعل سيجارة

ودخل الحمام. أنزل بنطاله ونظر إلى القطعة المتهدلة بين فخذيه. لذع دخان السيجارة أنفه. هز رأسه متحسراً ورفع بنطاله. نظر إلى المرأة قليلاً وخرج.

«هل انتهيت؟» سأل حسن ودعاه للجلوس على الكرسي بجانبه. كانت المائدة عامرة، وحسن يريد أن يأكل صديقه كثيراً كي يسترد عافيته. تناول زيهات كسرة خبز ورماها في فمه مع حبة زيتون أسود. أطال في مضغ اللقمة، لكنه لم يستطع ابتلاعها. شرب رشفات عدة من كأس الشاي وأشعل سيجارة. بغتة التقط حسن السيجارة من بين أصابعه وأطفأها في المنفضة. وقال مؤنباً: «ماذا أكلت حتى تبدأ بالتدخين مع الفجر؟»

«الله أكبر!» صرخ زيهات وهوى على الطاولة بقبضته. «أنت أيضاً مثل أمي. كل، اشرب، تزوج. لا تعرفون أكثر من هذا. كفاية. لقد مللت».

استغرب حسن من حنق صديقه المفاجئ، لا يدري كيف يتصرف. لاذ بالصمت ونظر عبر واجهة الدكان إلى الشارع. أسرع صبرو بالمضي إلى مؤخر المحل

وشغل نفسه بأعمال صغيرة وهو ينظر إلى الصديقين من خلل البسط المعلقة على الحبل. أشعل كل منهما سيجارة وتأملا الدخان المتصاعد من مناخيرهما. شعرا بثقل الصمت على صدريهما. ندم زيهات على تصرفه وخجل من فورة غضبه. شعر حسن بدوره أنه أخطأ بحق صديقه من ناحية، إلا أنه من ناحية أخرى شعر ببعض الضيق أيضاً. لكن ما حز في نفسه أكثر، كان قلق زيهات الذي فقد السيطرة على نفسه، وراح يفكر: «ترى أي كوارث حلت على رأسه؟ ما الذي يعذبه؟»

لم يتحمل الصديقان الجفاء أكثر من هنيهة، فتبادلا النظرات والابتسامات. شعر زيهات بالخجل وأحنى رأسه. ربت حسن على يده وملأ كأسه بالشاي. تنحنح صبرو مرتين وراء البسط، ثم رجع إلى مكانه ليجلس معهما ويكملوا فطورهم.

سأل زيهات: «هل ستذهب اليوم للعمل في تنظيف الواجهات؟»

«لا، هناك بعض الأمور المستعجلة، سأنهيها ثم

أذهب للعمل. إذا كنت تحتاجني في شيء، سأرافقك».

«لا عمل لدي، لكنني أريد التجول في المدينة قليلاً».

«طيب، سأرافقك».

«لا، لا، انتبه أنت لأعمالك».

«ليس هناك الكثير لأعمله، صبرو وحده قادر على إنهاء العمل كله».

«ابق رغم هذا في محلك».

«هل ستعرف طريق العودة».

«أنا أعرف استانبول، فلا تقلق علي. ثم لا تنسى أني زرت المدينة مرات عدة سابقاً».

«لك ما تشاء»، قال حسن وجر درج الطاولة: «ها هي مفاتيح المحل، وهذه هي بطاقتي».

«أعرف رقم هاتفك، فما الداعي للبطاقة؟» سأل زيهات. حمل المفاتيح وهمّ بالخروج.

رافقه حسن إلى الباب وتعقبه بنظره وقلبه مملوء بالشجون.

13

كانت الريح تعصف بحبيبات الثلج التي تخفق كأنها تحتضر. استدار زيهات وكور قبضتيه ليشعل سيجارة. صعد على رصيف المشاة وغذ السير. عندما وصل إلى الشارع العريض رفع يده ليوقف سيارة تاكسي. جلس في المقعد الخلفي. عندما التفت إليه السائق، قال له زيهات وهو يعتدل في جلسته: «إلى زيتون بورو... المستشفى الأرمني».

عندما نزل من التاكسي أمام بوابة المستشفى انتابته القشعريرة. تطلع حوله قبل أن يدخل البوابة الرئيسية. كان قلبه يخفق عالياً. كان خائفاً وخجلاً من مرضه، لا يرغب في أن يبوح لأحد بألمه. كان يفضل أن يفكر أبواه أنه عاق هجرهما وأن يقول رفاقه إنه هرب من المعركة، على أن يقولوا عنه إنه عاجز.

«يا إلهي، ما هذه المصيبة التي حطت على رأسي»، فكر وهو يتقدم إلى شباك الاستقبال. دلته الموظفة على الطريق. عبر زيهات طاولات عدة، دخل غرفة وخرج

منها، دفع أجرة المعاينة، أخذ رقمه في الدور وجلس في كرسي أمام باب طبيب الأمراض التناسلية. كان في الدور أربعة رجال آخرين يتحاشون نظرات بعضهم البعض، كأنهم يخجلون من مرضهم. كل منهم يود أن يعرف مرض الآخرين، لكنه لا يريد أن يعرف الآخرون مرضه. عندما حان دوره، قرع زيهات الباب ودخل. أغلق الباب وراءه، إلا أنه رغم ذلك التفت ليتأكد من أنه أغلقه تماماً، ثم مشى بخطوات وئيدة وخائفة إلى مكتب الطبيب. شبك يديه وظل واقفاً. كان يرتعش في داخله.

«تفضل، اجلس»، قال الطبيب مشيراً إلى أريكة.

جلس زيهات في الأريكة قبالة الطبيب، إلا أنه لم يتمكن من السيطرة على رعشة جسده.

«أهلاً وسهلاً، خيراً إن شاء الله»، قال الطبيب.

رد زيهات : «أهلاً بكم».

قلب الطبيب أوراق دفتره، فتح صفحة بيضاء، نظر إلى زيهات وسأله عن اسمه، فجاوبه زيهات : «اسمي سردار، سردار آليش».

«نعم»، قال الطبيب ودون الاسم والكنية في أول الصفحة.

«كم عمرك يا سردار؟»

«خمس وثلاثون سنة».

دون الطبيب الرقم في السطر الثاني، ثم سأل: «مم تشكو يا سردار؟»

«أشكو..»، تردد زيهات وطأطأ رأسه، ثم أضاف: «أشكو من... من عضوي... أعني أنه... أنه... لا ينتصب».

«لا ينتصب إطلاقاً، أم يضعف بين الحين والآخر؟»

«إطلاقاً».

«كم مر على هذه الحالة؟»

«عشر سنين».

«هل فحصك طبيب قبل الآن؟»

«لا».

«هل أنت متزوج؟»

«لا».

«ألهذا السبب لم تتزوج؟»

«عندما لم أكن هكذا، كنت أقول إني مازلت صغيراً، سأتزوج متى شئت، ثم جاءني المرض..».

«ولماذا انتظرت طوال هذه المدة، أعني لماذا لم تراجع طبيباً؟»

«لم يكن هذا ممكناً».

«وما المانع؟»

«كنت في السجن».

«هل جرى لك هذا في السجن؟»

«نعم».

«ألم يكن في السجن طبيب».

«بلى، لكنه لم يكن لنا».

«مفهوم»، قال الطبيب ونظر من خلال زجاج النافذة إلى الحديقة.

قرعت النواقيس. مسح زيهات عرق جبينه بمنديل ورقي وهو يتطلع في الطبيب.

«سيدي الكريم، أشعر بأني لست على مايرام، هل تسمحون لي بالخروج للتنفس قليلاً؟»

«طيب، لا مانع»، قال الطبيب. نظر إلى ساعته

وقال: «الساعة الآن الثانية عشرة، سأنتظرك في الواحدة».

«شكراً سيدي الطبيب»، قال زيهات وخرج. دخل المرحاض. وقف لحظات أمام المرآة. رشق وجهه بالماء البارد، ثم عاد إلى الممر لينتظر دوره. في الموعد المحدد قرع الباب ودخل. رحب به الطبيب ثانية وأشار إليه بالجلوس في الأريكة. وضع نظارته وفتح دفتره. قال لزيهات وهو يتأمله: «يا سردار، قلت إنك كنت في السجن!»

«صحيح سيدي الطبيب».

«هل يمكنك أن تشرح لي سبب مرضك؟»

شرد زيهات. في لحظة تذكر ما جرى له ثانية بثانية: «رموني ذات يوم في مؤخرة سيارة وأخذوني... أخذوني إلى منطقة عسكرية... عروني في غرفة عفنة، صبوا سطل ماء مثلج على جسمي وداروا حولي كالوحوش الضارية وهم يهددون باغتصابي. أحنوا ظهري على طاولة وفتحوا سحابات بناطيلهم. عندما صاروا خلفي، تمسكت بكل قواي بقضبان الباب

الحديدي ورطمت رأسي بها حتى سال دمي وتقيأت وسقطت على الأرض.

تركوني ذلك اليوم. أما في اليوم التالي فقد قيدوا يدي إلى قضبان الباب حالما دخلوا الزنزانة، مزقوا قميصي وبنطلوني وانهالوا على أعضائي بالهراوات. كانوا يصرخون: «سنخصيك». كانت ضرباتهم خفيفة في البداية، لكنها ازدادت عنفاً حتى أغمي علي من جديد. لا أعرف كم مر علي. عندما استعدت وعيي كنت مرمياً في زنزانة رطبة وباردة وأسناني تصطك. لم أرهم لفترة، ربما عشرة أيام أو أكثر. لكن حرقة مثانتي كانت تزداد ألما مع الوقت وكنت أتبول دماً».

كان زيهات يلهث كمن يرتقي جبالاً. فك زر قميصه العلوي. مسح العرق عن جبينه وأردف: «ذات يوم فتحوا باب الزنزانة. دخل منه شرطي وقال: «اخلع ملابسك بسرعة». خلعت أسمالي الممزقة وبقيت في السروال الداخلي. «السروال الداخلي أيضاً، هيا، هيا»، قال الشرطي وهو يهوي علي بهراوته. ولما خلعت السروال الداخلي، دس الهراوة في فمي

وقال: «عضها». حبل الهراوة في يده، رأسها في فمي، جرني الشرطي وراءه ككلب مربوط الفم وأخرجني من الزنزانة. كانت فصيلة من الشرطة تنتظر أمام الباب. نظروا إلي باحتقار وهم يقهقهون. فجأة رفعوا هراواتهم وانهالوا على رأسي ضرباً. لا أعرف كم ضربوني، لكنني أعرف أني لم أعد قادراً على الوقوف، ضاق نفسي وهويت على ركبتي. أحنوا ظهري. شدوا يدي ورجلي. زيّت أحدهم هراوته وأدخلها في شرجي. كأن سيخاً من النار دخل أحشائي. تدفق العرق من جبيني وسقطت على الأرضية».

قال الطبيب: «أفهم أن الكلام صعب عليك، هل تريد أن تستريح قليلاً؟»

«الحق إنه صعب جداً... لكن علي أن أنطق به يوماً ما، وأظن، كلما أسرعت كان أحسن لي».

«طيب كما تريد».

«بعدها بأيام عدة فتح باب الزنزانة من جديد وهجم علي الشرطي. وكما حدث سابقاً نزع عني ملابسي، دس الهراوة في فمي وجرني كالكلب. أخذني

إلى غرفة الكهرباء. ربطوا يدي خلف ظهري، أدخلوا عصا تحت إبطَي وربطوها إلى عارضة في السقف. لما ارتفعت قدماي عن الأرض، شعرت أن كتفي ستنخلع. ثم صبوا علي الماء المثلج. ربطوا إلى عضوي قابساً كهربائياً وأداروا محرك الكهرباء الصغير. كانوا يخففون شدة التيار عندما تنقطع أنفاسي، ثم يعودون ويرفعونها من جديد».

«كم يوماً قضيت في المنطقة العسكرية؟»

«ثلاثة أشهر».

«هل فعلوا بك مثل هذه الأشياء بعدها؟»

«لا. خلال أول شهرين كانوا يعذبونني مرتين في الأسبوع. وفي الشهر الأخير مرتين».

«وماذا حدث بعدها؟»

«بعدها أخذوني إلى المحكمة العسكرية التي أحالتني إلى السجن العسكري».

«طيب سأقوم بكل ما في وسعي»، قال الطبيب ونهض: «علي أن أعاينك أولاً».

دخل زيهات برفقة الطبيب إلى غرفة المعاينة.

«أحتاج قطرات عدة من السائل المنوي للتحليل المخبري»، قال الطبيب.

بذل زيهات كل جهوده حتى تمكن بشكل من الأشكال من عصر أربعة قطرات واهنة على لوح زجاجي. شكره الطبيب ورجاه الذهاب إلى المكتب. عاد زيهات إلى مكتب الطبيب وهو يشعر بنفسه قذراً. وضع الطبيب اللوح الزجاجي في علبة، كتب عليها «سردار آليش» وعاد إلى مكتبه.

«يا سردار، سنقوم بتحليل السائل المنوي، لكننا بحاجة إلى مزيد من التحاليل للدم والبول»، قال الطبيب وهو يدون شيئاً ما على ورقة بيضاء. ولما انتهى من الكتابة قال: «في الطابق الثاني، في آخر الممر، مخبر البول والدم. اذهب هناك ليأخذوا عينة منهما. قبالة المخبر سترى قسم الأشعة. هناك سيأخذون صورة لعضوك. ستخرج النتائج غداً الساعة الثالثة. تسلم نتائجك هناك وتعال إلي بعدها».

«حسناً سيدي الطبيب، أشكرك جزيل الشكر»، قال زيهات وخرج. عندما فتح الباب نظر إليه المرضى

الجالسون في قاعة الانتظار. طأطأ رأسه وأسرع في سيره. أول ما فعله هو دخول المرحاض حيث اغتسل. ثم ذهب إلى المخبر وقسم الأشعة. بعدها خرج إلى فناء المستشفى. كانت الأفكار تتلاطم في رأسه ولم يشعر بأن عبء أزمته خفَّ حتى بعد الاستفاضة في الحديث مع الطبيب. توقف وأشعل سيجارة.

كم ظل في الفناء؟ هل ذهب إلى محل حسن أم لا ومتى؟ لم يكن يدري. إلا أنه وجد نفسه في اليوم التالي واقفاً أمام بوابة المستشفى التي بدت كشاهدة قبر. نفض الثلج عن ملابسه وحذائه ثم دخل. أخذ نتائج التحاليل والصور الشعاعية من الطابق الثاني وذهب إلى الطبيب المعالج. تأمل هذا في النتائج بينما زيهات يحاول معرفة ما في ذهنه. قال الطبيب: «سردار، تفضل خذ راحتك» وهو ينظر إلى الصورة الشعاعية المعلقة في لوحة مضاءة. جلس زيهات وهو ينظر حزيناً متوثباً إلى وجه الطبيب. لم يكن يدري أين يذهب بيديه. كانت رجلاه تهتزان كأنه يشغّل ماكنة خياطة. قال الطبيب: «لقد تمزقت بعض الشعيرات الدموية والأعصاب. لا

يصل إلى القضيب دم كاف وهو لهذا لا ينتصب. لكن لكل داء دواء. هناك وسائل عدة لمعالجة هذا المرض. سأشرحها لك كلها، ثم تقرر أنت أيها تفضل».

«شكراً، سيدي الطبيب».

دخل الطبيب في تفاصيل وسائل المعالجة من العجز وزيهات يهز رأسه فاغراً فمه. إلا أن صدره كان ينقبض كلما أفاض الطبيب في الحديث عن العمليات الجراحية الممكنة أو الوسائل التقنية التي قد تؤذي أكثر مما تفيد. وكغريق يتمسك بآخر قشة يراها، سأل زيهات : «أليس هناك حل أسهل؟»

«مثل ماذا؟»

«حبوب مثلاً».

«هناك حبوب، لكنها للأسف غير متوافرة في تركيا. لم تنتشر كثيراً في العالم. يمكن الحصول عليها الآن في ألمانيا، لكنهم لا يصرفونها دون وصفة طبية».

«ولا يمكن صرفها بوصفة تركية؟»

«للأسف لا، يجب أن يصفها طبيب ألماني».

«لا تعرفون متى ستصل إلى السوق التركية؟»

«ستصل يوماً ما، لكن متى، الله أعلم. هناك وسيلة أخرى يا سردار... ربما تفيدك «لصقة الحياة»... لصقة تسخن تلقائياً... إنه شريط لاصق عليه مرهمٌ مغذٍ... كل ما عليك أن تفعله هو أن تزيل الغشاء البلاستيكي عنها وتلصقها على العضو... قد تتمكن من الممارسة مرة في اليوم».

«هذه اللصقة شيء عظيم».

«لكن قد يكون الصداع من أعراضها الجانبية».

«الصداع لا يهم، المهم أن تنفع».

كتب الطبيب الوصفة وسلمه إياها وهو يقول: «في باحة المستشفى صيدلية، يمكنك شراء اللصقة منها إذا أردت».

«شكراً سيدي الطبيب»، قال زيهات. نهض، غادر غرفة الطبيب والأفكار تتلاطم في رأسه. اشترى اللصقة من صيدلية المستشفى وخرج إلى الشارع.

14

سار زيهات على الرصيف بمحاذاة سور المستشفى. أشعل سيجارة وتمتم: «لا أظن أن هذه اللصقة ستنفعني، لكنه أمل إبليس في الجنة. إذا كانت الأعصاب مقطوعة فمن سيرد إليها الحياة؟ من سيرد الروح إلى جسد ميت؟» أشعل سيجارة أخرى من عقب سيجارته التي أحرقت جمرتها أصابعه. نزل من الرصيف الضيق إلى طرف الشارع العام.

السيارات التي كانت تتجاوزه بسرعة الطلقات وتعصف به، كادت تصدمه. بل أنها ألهمته مجازاً عن حياته. في خياله غدت حافة الشارع التي لا تفصله عنها إلا نصف خطوة حافة لقبره. فإلى أي منحى يميل؟ إن خطا يساراً ستصدمه سيارة عابرة وتنهي مأزق حياته وإن خطا يميناً سيفوز بالحياة ولكن أي حياة. إنها نصف حياة ليس إلا. رفع قدمه ليخطو إلى الموت، لكن الشجاعة خانته. أيقظه بوق شاحنة من تشوشه، فقفز لاإرادياً نحو اليمين. دس أصابعه في

أذنيه، أغمض عينيه وتوقف حيث هو. كان قفصه الصدري يعلو ويهبط كأن فيه جرواً يلاحقه أولاد أشقياء. ظل مدة على حاله هذه، ثم تهدلت يداه، جرجر ساقيه إلى الرصيف الضيق وسار نحو المدينة الصاخبة. تذكر علبة الدواء. تحسس جيبه وأخرجها منه. قرأ العبارات المكتوبة عليها. تمتم: «لا أظن أنها ستنفع... أنا واثق أنها لن تفيد... ربما كانت تنفع...». وفي بحر الضجيج العالي في رأسه لاحت في ذهنه بيوتات الدعارة.

طوال عمره كان زيهات قد تردد على هذه البيوتات مرتين فقط. الأولى في دياربكر وهو مراهق لا يحق له دخولها، إلا أن صديقاً له أقنعه بأن القواد سيسمح له بالدخول إذا رشاه. وحق قول الصديق، إلا أن زيهات، دخل، تفرج وخرج. والمرة الثانية كانت في استانبول، عندما جاء ليقدم امتحانات الجامعة. لكنه ندم في المرتين وظل يوبخ نفسه كلما تذكرهما، أما في لحظته تلك فقد انهارت سدود الحياء، لتفتح مجرى لجدول الأمل. «لقد مرت خمس عشرة سنة... هل سأعرف الطريق... إذا

لم يخب ظني، كان في حي كاراكوي»، حاول زيهات استعادة الذكرى الكريهة والواعدة بانفجار رغبات الجسد المنهك. انحدر نحو الشارع الرئيس. سأل عن الطريق إلى حي كاراكوي. بدل حافلتين. عندما نزل على جسر غَلَطا، أدار ظهره للبحر فأبصر برج غلطا ما جعل صدره ينشرح وتواردت أحلام جريئة على ذهنه. «تذكرت»، قال وانحدر إلى الزقاق. على المدخل دنا منه رجل ووسوس في أذنه: «عندي أحلى بنات». رد زيهات: «لا أريد» وتابع سيره. لاحقه الرجل: «تعال ولا تخف، الفرجة بالمجان، لن تندم، بل ستشكرني». أسرع زيهات حتى وصل إلى برج غلطا في زقاق ضيق. استأجر غرفة في فندق. أقفل باب الغرفة بالمفتاح مرتين. خبأ نقوده تحت الفراش. قرأ سطوراً عدة من الورقة المرفقة بلصقة الحياة وأغمض عينيه.

أفاق قبل الظهر. تناول الفطور في صالون الفندق وخرج. اشترى من محل قريب لوح صابون، معجون أسنان وفرشاة، مقصاً صغيراً، قصاصة أظافر، مبرداً، ملقط شعر وعاد إلى غرفته في الفندق. مد ورقة جريدة

وقص عليها أظافره ثم برّدها. حلق ذقنه في المغسلة. قصر حاجبيه النافرين، نتف شعر وجهه بالملقط، نظف الأسنان المتبقية في فمه ودخل الحمام. حلق شعر إبطيه وعانته وأخذ «دوشاً» دافئاً.

ألصق زيهات «لصقة الحياة» على عضوه. تدفق فيه الدم شيئاً فشيئاً... شعر زيهات بالحياة تتدفق في عروقه... احترقت حشفته كأن بعوضة لسعتها... أشعل سيجارة وانتظر. كان الطبيب قد أخبره أن اللصقة تأخذ مفعولها بعد ساعة. انتظر زيهات ربع ساعة، لم ينتصب العضو. انتظر نصف ساعة، لم ينتصب العضو. انتظر ثلاثة أرباع الساعة والعضو لم ينتصب. نزع اللصقة ورماها من النافذة ويمم وجهه شطر دار البغاء.

15

على كنبة عريضة قرب موقد الفحم كانت ثلاث نساء يعلكن وجمع غفير من الرجال يتفرجون عليهن عبر الواجهة الزجاجية. كان القواد يصيح على العتبة: «ادخل، ادخل... الفرجة بالمجان... ادخل، ادخل».

شق زيهات طريقه وسط الزحام حتى وصل المدخل. تبسمت امرأة سمينة تلعب بتكة سروالها الداخلي الأحمر وغمزت له ليقترب منها. رفع القواد صوته: «ادخل، ادخل... الفرجة بالمجان... ادخل، ادخل».

دخل زيهات.

نفخت ذات السروال الأحمر فقاعة علك ونهضت لاستقباله: «جهز نفسك في الغرفة رقم واحد، سألحقك حالاً»، قالت وقربت مؤخرتها من الموقد.

ارتقى زيهات سلماً خشبياً عفناً. عبر ممراً تفوح منه رائحة المني ودخل الغرفة رقم واحد. خلع ملابسه. وقف أمام السرير الفارغ شابكاً يديه أمامه. بعد هنيهة

اندفعت المرأة إلى الغرفة. خلعت سروالها الأحمر. رقدت على السرير وفرجت عن فخذيها. ظل زيهات واقفاً يحدق فيها. ضاقت المرأة ذرعاً: «هل أنت هنا لتتفرج علي؟». مرر زيهات عينيه على جسدها العاري ولم يرد عليها.

جلست المرأة في السرير وسألته: «هل أنت سكران؟»

«لا»، رد زيهات. مر بعينيه على جلدها المتجعد من أخمص القدمين حتى وصل عيني المرأة، التي سألته: «لماذا تخفيه بيديك؟»

طأطأ زيهات رأسه.

«ألا ينتصب؟»

لم يرد زيهات.

«ارفع يديك لأرى!»

اقشعر جسد زيهات وشد يديه أمامه.

«ألست رجلاً؟»

لم ينبس زيهات.

«إذا أردت أن تعملها فتعال وإلا فليس عندي

وقت، هيا»، قالت المرأة وهمت بالنهوض.

أدار زيهات ظهره للمرأة. ارتدى ملابسه وغادر الغرفة. خرج من بيت الدعارة إلى الزقاق. توقف ذهنه عن التفكير لا يدري ماذا يفعل أو بمن يلوذ. لم تعد به طاقة لا على الحياة ولا على الموت. انعطف في زقاق ليدخل منه زقاقاً آخر. شرد في أزقة الحي الملتوية كأفعى تريد أن تبتلعه.

وضاع زيهات.

نبذة عن المؤلف:

صلاح الدين بولوت: ولد عام 1954 في ديريك «تركيا».. من أعماله: الجنة الخرساء «قصص قصيرة 2006..

نبذة عن المترجم:

كاتب وصحافي من سوريا، ولد عام 1968 في القامشلي. وله مجموعة شعرية بعنوان: ماء البارحة، 2009.

العاجز

أدار زيهات ظهره للمرآة. ارتدى ملابسه وغادر الغرفة، خرج إلى الزقاق، توقف ذهنه عن التفكير لا يدري ماذا يفعل أو بمن يلوذ، لم تعد به طاقة لا على الحياة ولا على الموت. انعطف في زقاق ليدخل منه زقاقاً آخر، شرد في أزقة الحي الملتوية كأفعى تريد أن تبتلعه.

وضاع زيهات..

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة
أطفال و ناشئة

كلمة
KALIMA

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

9 789948 171997